مما امتنع ظاهر معناه من المفردات القرآنية بين الدلالتين: اللغوية والتفسيرية

✍ إعداد الدكتور
هاشم عبدالرحيم حسن عبدالجواد
المدرس بقسم أصول اللغة – كلية اللغة العربية
جامعة الأزهر - بأسيوط

مما امتنع ظاهر معناه من المفردات القرآنية بين الدلالتين: اللغوية والتفسيرية

هاشم عبدالرحيم حسن عبدالجواد

قسم أصول اللغة – كلية اللغة العربية – جامعة الأزهر – أسيوط – مصر.

البريد الالكتروني: Hashemabdelgawad١٠٧٩.el@azhar.edu.eg

الملخص :

من الملاحظ على جُلِّ أبناء عصرنا أن أواصر صلتهم بلغتنا العربية تتمزق رويدًا رويدًا، ومن ثم نضبت محصلتهم من ألفاظ اللغة ومعرفة مدلولاتها، وأصبح بينهم وبينها بون بعيد، وقد أفضت هذه الجهالة اللغوية إلى فقدان أدوات فهم النصوص فهمًا سليمًا وطرائق الوقوف على مقاصدها، لا سيما النصوص الشرعية، وعلى رأسها كتاب الله –عز وجل. ومن مظاهر ذلك أنك تجد شريحة عريضة من الناس –بل من المتخصصين– حين يُقْدِمُون على تفسير النص القرآني يَحْمِلُونَ بعض مفرداته على المعنى اللغوي الظاهر المشتَهر عندهم؛ لأنهم لا يدرون سواه، ثم يفاجئك النص القرآني بأن هذا المعنى الظاهر ممتنع، ولا يتسق ومرادَ الله فيه، وهنا تكمن خطورة هذا التفسير الخاطئ، وتتجسم الغاية الفاسدة الناجمة عن هذا الفهم الأثيم؛ لأن العثرة فيه ليست كما في سواه. لذا حركتني هذه السقطات الدلالية واستوقفتني بين يدي هذه الفكرة مَلِيًّا، واستحسنتُ أن أجمع بعض هذه المفردات المُنبَثَّات بين دفتي المصحف المقدس، التي امتنع ظاهر معناها؛ وأعالج مادتها، فأُثْبِت

بالحجج الدامغة بطلان هذه الدلالة اللغوية الظاهرة والمتبادِرة إلى الأذهان، وأؤكد فساد معناها بين حنايا النص، ثم أوقف القارئَ على المعنى الصواب الذي تصطفيه الآية ويتساوق مع مقصد التنزيل العزيز. هذا، وقد اكتشف البحث أن بعض هذه السقطات الدلالية عظيمة المأثم كبيرة الجرم؛ لأن منها ما يمس ثوابت الدين، كالطعن في عصمة الأنبياء، ومنها ما يفسِّر الغيبياتِ على غير وجهها المسموع عن الوحي؛ ومن هنا برزت أهمية هذه الفكرة التي تعمل على تصحيح هذا الدلالات الخاطئات.

الكلمات المفتاحية: امتنع – ظاهر – معناه – الدلالتين – اللغوية – التفسيرية.

❁❁❁❁❁

Which abstained from its apparent meaning from the Quranic vocabulary between the two semantics: linguistic and explanatory

Hashem Abdel-Rahim Hassan Abdel-Gawad
Department of Language Fundamentals - Faculty of Arabic Language - Al-Azhar University - Assiut - Egypt.
e-mail: Hashemabdelgawad١٠٧٩.el@azhar.edu.eg

abstract:
It is noticeable to most of our people that the bonds of their connection to our Arabic language are slowly being torn apart, and then their outcome of the language and knowledge of its meanings has become depleted, and between them and it has become distant Bonn, and this linguistic ignorance has led to the loss of tools to understand the texts properly and the ways to stand on their purposes, especially The legal

texts, on top of which is the Book of God - Glory be to Him. One manifestation of this is that you find a wide segment of people - even specialists - when they interpret the Qur'anic text, they carry some of its vocabulary on the apparent linguistic meaning known to them; Because they do not know anything else, then the Quranic text surprises you that this apparent meaning is forbidden, and is not consistent with the intention of God in it, and here the seriousness of this mistaken interpretation lies, and the corrupt purpose resulting from this sinful understanding is embodied; Because Misconception, embodied in the corrupt goal arising from this unrighteous understanding; Because the stumbling in it is not the same as anything else. So these semantic falls moved me and paused me this idea in my hands, and I deserved to collect some of these vocabulary words transmitted between the two wings of the Holy Qur'an, whose apparent meaning declined. I treat its material, and the irrefutable arguments were proven false in the linguistic significance that appeared and exchanged in minds. This, I have discovered Finding that some of these semantic hiccups are a major sin. Because some of them touch the foundations of religion, such as stabbing the infallibility of the prophets, and some of them explain the occult other than its audible form of revelation; Hence the importance of this idea, which works to correct these false indications.

Keywords: refrain - apparent - its meaning - semantics - linguistic - explanatory.

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمـــــة

اللهم لك المحامد، من كل راكع وساجد، يا رافع كل جائحة، ودافع كل فادحة، تلتقي القلوب على أعتابك، فاقبلْ واعف عن طُلَّابك، أجريت المحابر والأقلام، وحركت العقول والأفهام، فامنن بسابغ النعم، وتلطف بصرف النقم، وصل وسلم على مِدَادِ العلوم، ونجم النجوم، ذي الفضل المعلوم، والخير الدؤوم، وارض عن خير بررة، ممن اقتفى أثره، وعن كل تابع، إلى هداه قابع.
أما بعد:

فإن لكل بيت بابًا، وباب كتاب الله -عز وجل- فهم العربية، ومن رام إدراك معانيه من غير بابه، فقد تسور القرآن، وأغضب الرحمن، وأَثِمَ ووَزَرَ، وتجشم الخطر، وحيل بينه وبين مقاصد التنزيل، وفسر كلامه على تضليل.

ومن هنا وجب -ولات مناص- على من يبتغي تفسير شيء من كتاب الله عز وجل- أن يعي علم اللغة، فقد اشترط العلماء في المفسِّر أن يجمع خمسة عشر عِلمًا، تتصدرها اللغة؛ لِأَنَّ بِهَا يُعْرَفُ شَرْحُ مُفْرَدَاتِ الْأَلْفَاظِ وَمَدْلُولَاتِهَا بِحَسَبِ الْوَضْعِ، ولا يحل الإقدام على تأويل التنزيل العزيز إلا بها، ولذا قال مجاهد (ت١٠٤هـ): لَا يَحِلُّ لِأَحَدٍ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ أَنْ يَتَكَلَّمَ فِي كِتَابِ اللَّهِ إِذَا لَمْ يَكُنْ عَالِمًا بِلُغَاتِ الْعَرَب.(١)

ولَمَّا تعاظمت خطيئة من فَسَّرَ بما لا يعلم -لجهالته باللغة- أدرك الأسلاف خطورة هذه الجريرة، فذهبوا يرسلون المحاذير من التجاسر على التنزيل، ولم يكن الإمام مالك -رضي الله عنه- مُغَالِيًا حين توعد المُجَازِفَ بالمعاني الجاهلَ بطرائق العرب وسَنَنِهم، إذ قال: "لا أُوتَى برجل يفسر كتاب الله غير عالم بلغة العرب إلا جعلته نكالًا"(٢).

---

(١) الإتقان في علوم القرآن، للسيوطي ٢١٣/٤، بتصرف.
(٢) البرهان في علوم القرآن، للزركشي ٢٩٢/١.

ومما يستدر ذَرْفَ العيون أن المسافة بيننا وبين العربية تتناءى؛ فتتسع الفجوة بيننا وبين القرآن العزيز، ويزداد المرء -من حيث محصوله اللغوي- فقرًا. وقد بدا أثر هذا الفقر اللغوي في هذا العصر الباهت، حيث تجد ثلة من الناس يتصدرون لتفسير آيٍ القرآن الحكيم، فيحمِّلون كلماته من المعاني ما لا تحتمل، ويتأولونها على غير مراد الله -تعالى- فيها؛ فيَضِلون ويُضِلون.

ومن الأخطاء الناجمة عن الجهل بمدلولات الألفاظ أن بعض المفردات القرآنية تفسَّر بمعناها اللغوي الظاهر والمألوف، والذي لا يوافق بغية النص القرآني، وهنا تتجسم المشكلة.

لهذا كله مالت النفس إلى جمع عينة من هذه المفردات التي امتنع ظاهر معناها؛ لتبيين التفسير الخاطئ وتفنيده بالدلائل القاطعة، مع بيان الوجه التي يتفق وغرض الآية من الدلالات التفسيرية واللغوية، واستظهار ملحة ذلك.

وقد استملحت المادة العلمية أن يكون عنوان البحث: "مما امتنع ظاهر معناه من المفردات القرآنية، بين الدلالتين: اللغوية والتفسيرية".

إشكالية البحث:

ينبجس عن حنايا هذه الفكرة استفهاماتٌ ثائرة، هي:

- **ما المعيار الذي عليه اتكأت الفكرة في الحكم على المعنى بالظهور؟**
- **مَن الفئة التي يعوِّل عليها البحث في إجراء ظاهر المعنى على المفردة القرآنية؟**
- **هل سيرصد البحث عللًا تفند إسقاط المعنى الظاهر على المفردة القرآنية، وتثبت فساده؟**
- **هل نجم عن تفسير المفردة القرآنية بظاهر معناها مساسٌ بثوابت الدين، كعصمة الأنبياء...؟**
- **ما الثمرة التي يقطفها من يطالع هذا الطرح؟**

- **هل سيستظهر البحث -بعد دحض المعنى الظاهر- معنى يتسق وبغيةَ النص القرآني؟**

ومن يتفقد هذه الوريقات يقفْ -بحسب مرآي القريب، ومن الله الهدى والرشد- على إجابات شافيات وافيات كافيات.

وثَمَّ تنويهان مهمان:

أولهما- أن الحكم على المعنى الممتنع بالظاهر مرده إلى الدارسين المتخصصين، بحيث تنصرف إليه الأذهان وتبتدر إليه الأبصار دونما كلفة. ولا يُلفت إلى كلام العوام في هذا المعيار؛ لأن جل معاني القرآن تخفى عليهم فحكمهم عليه بظهور أو خفاء حكم معلول؛ وذلك لعدم معرفتهم بعلم اللغة؛ ولهذا يخفى عليهم معان كُثُر، قد تظهر لغيرهم.

ثانيهما- اعتمد البحث على بعض المفردات التي فُسرت على ظاهر معناها اللغوي الممتنع، وعالج عينة منها، وقد أومأت إلى هذا القيد في عنوانه بتضمينه "مِنْ" التبعيضية، فقلت: "مما امتنع ظاهر معناه...".

وعلة اختيار هذه الأمثلة دون سواها، أن إجراء الأمثلة المختارة على ظاهرها يترتب عليه إشكالات أعظم من الأمثلة المتروكة، فمن الأمثلة التي درستها ما يترتب على ظاهر معناه قدحٌ في عصمة الأنبياء -عليهم الصلاة والسلام- بل منها ما يوهم ظاهرُه تكفيرَهم -وحاشاهم ذلك- ومنها ما يُفسِّر الغيبياتِ على غير ما سُمع فيها، كالحديث عن تعاطي أهل الجنة كؤوس الخمر في ضوء قوله -تعالى-: ﴿يَتَنَازَعُونَ فِيهَا كَأْسًا﴾[1]... ومن هنا برزت أهمية هذه الأمثلة المرشحة وقيمتها.

أسباب اختيار الموضوع:

قد حضني على الوقوف بين يدي هذه الفكرة ومعالجتها سببان:

الأول- أنها فكرة تتسم بالجدة من حيث المعالجة والنقد والتحليل، ولَمَّا أعلمْ أحدًا تناولها؛ وعلى هذا أُراها جديرة بالدرس.

(١) سورة الطور: من الآية ٢٣.

الثاني- فداحة الخطأ الناجم عن إجراء المفردات القرآنية على ظواهر معانيها اللغوية التي تأباها الآيات، فقد سمعت مرة بعض من يرتقي المنابر يفسر قول الله -تعالى-: ﴿لَنُخْرِجَنَّكَ يَا شُعَيْبُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَكَ مِنْ قَرْيَتِنَا أَوْ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنَا﴾[1] ويقول -وهو يسرد أقوال المفسرين فيها-: قيل: كان شعيب على ملة قومه.[2] فكأنما دمغني من فوق المنبر بحجر، وحركتني هذه الكلمة صوب تلك الفكرة؛ فوليت وجهي شطرها.

الدراسات السابقة:

طالعت هذه الفكرة؛ لأتثبت من ظفري بها وسبقي إليها، فوقفت على كتيب بعنوان "أكثر من ٢٠٠ كلمة قرآنية قد تفهم خطأ"،[3] لعبد المجيد إبراهيم السنيد. وعندما قرأته بإنعام تبين لي أنه لا يتعارض مع فكرتي، للأسباب الآتية:

الأول- تلحظ في هذا الكتاب سمة عامة، وهي أن عباراته مقتضبة جدا، فهو -في كل مفرداته- يكتفي بذكر المعنى الصحيح، ويشفعه بالمعنى الخاطئ، وربما لا يتجاوز سطرًا واحدًا، ولا يورد علل التخطئة، ولا يربط بين المعنى الصواب والآية؛ مما يدل على أنه خلا من الدراسة والتحليل.[4] وكأنه معجم مصغر لهذا الحقل الدلالي.

أما دراستي هذه، فتستوفي المسألة كاملة، بتوثيق معناها الظاهر من المعاجم، ثم ذكر علل التخطئة، وبيان المعنى الصحيح، مع ربطه بمعنى الآية، وبيان أوجه استحسانه...

---

(١) سورة الأعراف: الآية ٨٨ .
(٢) سأفصِّل القول فيها في المبحث الأول- إن شاء الله.
(٣) جل ما ذكرته المواقع الإلكترونية من هذه المفردات منقول عن هذا الكتيب.
(٤) من ذلك: قوله -في تفسير قول الله -تعالى-: ﴿وَأَنَّا لَمَسْنَا السَّمَاءَ فَوَجَدْنَاهَا مُلِئَتْ حَرَسًا شَدِيدًا وَشُهُبًا﴾ (الجن: الآية ٨)-: لمسنا: أي: تحققنا، وطلبنا خبرها. وليس معناها لمسناها حقيقة." ص٧٩.

الثاني– أن كثيرًا من المعاني التي حكم عليها بالخطأ ذكرها بعض المفسرين ووجهوها توجيهًا حسنًا مقبولًا، من ذلك قوله –في تفسير قول الله –تعالى–: ﴿وَمِنَ الْأَنْعَامِ حَمُولَةً وَفَرْشًا﴾[1]–: "﴿وَفَرْشًا﴾: هي صغار الإبل. وقيل: الغنم. وليَس المعنَى من الفراش، وهذا قول أكثر المفسرين"[2]. وقد استحسن بعض المفسرين الوجه الذي خطَّأه صاحب هذا الكتيب، بأن الفَرْشَ مَا يُتَّخَذُ مِنَ الْوَبَرِ وَالصُّوفِ وَالشَّعْرِ فِرَاشًا يَفْتَرِشُهُ النَّاسُ[3]. ثم إن قوله: "أكثر المفسرين" ينقض حكمه بأنها مما يفهم –على القول الثاني– خطأ؛ لأن الخطأ ما أجمع المفسرون على رده، وقد فشا هذا في كتيبه.

أما بحثي فيلتزم المفردات التي امتنع ظاهر معناها اللغوي، ولا يُقبل البتة.

الثالث– من الملاحظ أنه ينبه على تخطئة معانٍ لا تخفى على العوام.[4] أما فكرتي فتتناول ما امتنع ظاهره لدى المتخصصين، بحيث ينخدع فيه الدارس، ويسقطه على آيِ القرآن الكريم، ولا يقف على مراده الصحيح إلا بالرجوع إلى مظانه.

الرابع– بعض المعاني الخاطئة مرتبطة ببيئته المحلية –في المملكة العربية السعودية–[5] وليست ظاهرة عامة. أما بحثي فقد عالج ما امتنع ظاهر معناه في البيئة العربية جمعاء.

الخامس– تناول كتيبه عددًا من التراكيب التي تفهم خطأ،[6] أما بحثي فحبيس على المفردات.

---

(١) سورة الأنعام: من الآية ١٤٢.

(٢) أكثر من ٢٠٠ كلمة قرآنية قد تفهم خطأ، ص٢٧.

(٣) ينظر: فتح القدير، للشوكاني ١٩٢/٢.

(٤) نحو قوله –في تفسير قول الله –تعالى–: ﴿وَجَاءَتْ سَيَّارَةٌ﴾ (سورة يوسف: من الآية ١٩)–: "السيارة: نفر من المارة المسافرين، وليست الآلة المعروفة" ص ٣٦ .

(٥) نحو قوله –في تفسير قول الله –تعالى–: ﴿مِنْ بَقْلِهَا وَقِثَّائِهَا﴾ (سورة البقرة: من الآية ٦١)–: "بقلها: ما ينبت الربيع مما يأكل الناسَ والبهَائمَ، وليس هو من الأقط –الجُبْن اليابس– الذي اعتاد بعض الناس تسميته بقلًا" ص ١٠ .

(٦) مثل قوله –في تفسير قول الله –تعالى–: ﴿وَرَبَائِبُكُمُ اللَّاتِي فِي حُجُورِكُمْ﴾ (سورة النساء: من الآية ٢٣)–: قيد لا معنى له خرج مَخرج الغالبَ". ص٢١ .

وبعد، فتلك براهين ساطعة تشهد بأن هذا الكتيب لا يتقاطع مع بحثي، وأن بين المعالجتين بونًا بعيدًا.

منهج البحث:

التزم البحث في تحليل المادة العلمية المنهج الوصفي، مفصلًا في النقاط الآتية:

أولًا- بدأت كل مثال بالآية القرآنية المشتملة على المفردة محل الدراسة.

ثانيًا- ذكرت المعنى اللغوي الظاهر والممتنع، وكذلك المعنى الصحيح، موثِّقًا كليهما من المعجمات.

ثالثًا- شفعت المعنى اللغوي بالدراسة، مبينًا فيها المعنى الذي امتنع ظاهره، مع ذكر الأسباب التي منعتْ إسقاطه على الآية، ثم ذكرت المعنى الصحيح، مؤيَّدًا بالدليل، وربطتُ بينه وبين الآية ذات الشاهد.

رابعًا- وثقتُ ما نقلته من مظانه، ونسبت الأقوال إلى ذويها قدر الطاقة.

خامسًا- وضعتُ أمام كل علم مغمور تاريخ الوفاة؛ لئلا يلتبس بسميِّه، أما المشهور منهم، فقد أغنت شهرته عن ذكر تاريخ وفاته.

خطة البحث:

ترتسم خطة البحث بحسب ما تضمه من مادة علمية، وقد اقتضت طبيعتها أن تخرج الخطة في: مقدمة، وتمهيد، وثلاثة مباحث، تتلوها الخاتمة، ثم فهرس المراجع والمصادر.

التمهيد: وعنوانه: الدلالة اللغوية والدلالة التفسيرية.

المقدمة: تحدثت عن أهمية الفكرة، وإشكالية البحث، وأسباب اختياره، والدراسات السابقة، وخطة البحث، والمنهج الذي سلكته فيه.

المبحث الأول- وعنوانه: الحديث عن الأنبياء -عليهم الصلاة والسلام. ويشتمل على مطلبين:

المطلب الأول- عن أولي العزم.

المطلب الثاني- عن غير أولي العزم.

المبحث الثاني- الحديث عن الغيبيات.

المبحث الثالث- الحديث عن الكافرين.

الخاتمة: وبها نتائج البحث، وتوصية.

فهرس المراجع والمصادر.

هذا، وقد استحسنتُ التقسيمَ السالف في الخطة، فوضعتُ كل مثال في موضعه الأوثق به والذي ينسحب أثره عليه، فإذا كان أثر المعنى الظاهر الممتنع متعلقًا بالأنبياء فهو في المبحث الأول، وإذا كان في الغيبيات وُضع في مبحثها، والأمر نفسه في المفردات الواردة بشأن الكافرين في المبحث الثالث؛ ومن ثم لا نشاز بين التقسيم وما تحته، بل يبدو بينهما تناغم وانسجام.

وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم.

تمهيد: الدلالة اللغوية والدلالة التفسيرية

أولًا- الدلالة اللغوية:

إذا كان المعجم كتابًا يضم أكبر عدد ممكن من مفردات اللغة مقرونة بشرحها وتفسير معانيها ومرتبة ترتيبًا خاصًّا،(١) فإن المعنى المعجمي هو ذاك المعنى الأول الذي تكلمت به العرب، فوضعه المعجميون إزاء لفظه، وهو التصور الذهني الأول للمعنى. ويطلق على المعنى المعجمي: الدلالة اللغوية، أو المعنى اللغوي.

وقد يتعدد المعنى المعجمي لكلمة واحدة، فتكون الكلمة -إذ ذاك- من المشترك اللفظي، الذي دلت الكلمة فيه على معنيين فأكثر عند أهل اللغة، وهذا الضرب من الألفاظ من لم يَعِه لا يتأتى له تفسير كلام الله -عز وجل- تفسيرًا صحيحًا، فقد بينتُ سابقًا أهمية أن يعي المفسر كلام العرب ولغاتهم، وأؤكد هنا أنه لَا يَكْفِي فِي حَقِّهِ مَعْرِفَةُ الْيَسِيرِ مِنْهَا، فَقَدْ يَكُونُ اللَّفْظُ مُشْتَرَكًا وَهُوَ يَعْلَمُ أَحَدَ الْمَعْنَيَيْنِ وَالْمُرَادُ الْآخَرُ(٢)؛ فلا يقف على فهم معاني الوحي، فيضلُّ الطريق إلى المعنى الصواب، ويُكْرِهُ النصَّ على غير مأربه؛ فَيَرِدُ موارد الهلكة. وهذا السبب الأظهر الذي زج ببعض المتخصصين المحدثين إلى حمل اللفظ على ظاهر معناه اللغوي الممتنع؛ لأن المعنى المؤمَّ خفيٌّ عنه ولا يدريه.

ثانيًا- الدلالة التفسيرية:

عرف الزركشي "التَّفْسِير" بأنه "عِلْمٌ يُعْرَفُ بِهِ فَهْمُ كِتَابِ اللَّهِ الْمُنَزَّلِ عَلَى نَبِيِّهِ مُحَمَّدٍ -ﷺ- وَبَيَانُ مَعَانِيهِ وَاسْتِخْرَاجُ أَحْكَامِهِ وَحِكَمِهِ"(٣). وهذا الحَدُّ يستلزم -بدهيًّا- أن تكون الدلالة التفسيرية -غايةُ هذا العلم- تلك التي يطلبها النص القرآني، بحيث تتفق ومرادَ الله -تعالى- من كلامه. وتُسترفَد

(١) مقدمة الصحاح، لمحمد عبد الغفور عطا ص٣٨، بتصرف.
(٢) الإتقان في علوم القرآن، للسيوطي ٢١٣/٤، بتصرف.
(٣) البرهان في علوم القرآن ١٣/١.

هذه الدلالة وتُستمَد "مِنْ عِلْمِ اللُّغَةِ وَالنَّحْوِ وَالتَّصْرِيفِ وَعِلْمِ الْبَيَانِ وَأُصُولِ الْفِقْهِ وَالْقِرَاءَاتِ وَيَحْتَاجُ لِمَعْرِفَةِ أَسْبَابِ النُّزُولِ وَالنَّاسِخِ وَالْمَنْسُوخِ"(١).

ويشير هذا الضابط بقوة إلى أن التوسع والتبحر في معرفة مدلولات الألفاظ ليس كافيًا، بل لا بد -بجانب تحصيل هذه العلوم- أن يكون المفسِّر ثاقب الفهم، ذا فطنة وموهبة تمكنه من اصطفاء المعنى الأنسب، وتُعِينُه على تحديد الدلالة الأليق.

وقد نوه العلماء -فيما نوهوا- بشرط لا غَناء للمفسِّر عنه، وهو علمه بأصول الدين الذي يطلقون عليه: علم الكلام؛ إذ به يعرف ما يتصف به الله -تعالى- وما لا يجوز في حقه، ويعرف به ما يتعلق بالنبوات، وما يجوز للرسل وما لا يجوز.(٢) فجهل المرء بهذا العلم قد يحمله -من حيث لا يدري- إلى القدح في ثوابت الدين كعصمة الأنبياء، وتفسير الغيب على غير الوارد فيه...

وآكَدُ النعوت التي يجب أن تتحقق فيمن يفسِّر وإليها تأرز جميع الشروط أن يكون ذا خشية تمنعه من هيمنة الهوى على تفسير الوحي، ولهذا وقف العلماء عند هذا القيد مليًّا، فقالوا: "اعْلَمْ أَنَّهُ لَا يَحْصُلُ لِلنَّاظِرِ فَهْمُ مَعَانِي الْوَحْيِ وَلَا يَظْهَرُ لَهُ أَسْرَارُهُ وَفِي قَلْبِهِ بِدْعَةٌ، أَوْ كِبْرٌ، أَوْ هَوًى، أَوْ حُبُّ الدُّنْيَا، أَوْ وَهُوَ مُصِرٌّ عَلَى ذَنْبٍ، أَوْ غَيْرُ مُتَحَقِّقٍ بِالْإِيمَانِ، أَوْ ضَعِيفُ التَّحْقِيقِ، أَوْ يَعْتَمِدُ عَلَى قَوْلِ مُفَسِّرٍ لَيْسَ عِنْدَهُ عِلْمٌ أَوْ رَاجِعٌ إِلَى مَعْقُولِهِ. وَهَذِهِ كُلُّهَا حُجُبٌ وَمَوَانِعُ بَعْضُهَا آكَدُ مِنْ بَعْضٍ"(٣).

ومن العُجَاب أنه -على تجرد جل المعاصرين من هذه الشروط- تراهم يقدمون على تفسير التنزيل العزيز؛ فيخبطون خبط عشواء، ويحملون بعض المفردات القرآنية على ظاهر معناها الممتنع المردود.

---

(١) السابق: الموضع نفسه.
(٢) ينظر: التفسير والمفسرون، د. محمد السيد حسين الذهبي ١/١٩١.
(٣) الإتقان في علوم القرآن ٤/٢١٦، وينظر: البرهان في علوم القرآن ٢/١٨٠.

المبحث الأول ـ الحديث عن الأنبياء

توطئة:

جمعت في هذا المبحث من الأمثلة التي امتنع ظاهر معناها، ووردت في تضاعيف الحديث عن الأنبياء والمرسلين -عليهم الصلاة والسلام- أولي العزم وغيرهم، وأولو العزم -بحسب ترتيب الزمن-: نوح، وإبراهيم، وموسى، وعيسى، ونبينا -صلى الله وسلم عليهم أجمعين- وعلى هذا التنوع قسمت المبحث إلى مطلبين، هما:

المطلب الأول ـ عن أولي العزم

أولاً ـ النبي ﷺ

١- مثْلُكم

قال الله -تعالى-: ﴿قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُوحَى إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ فَمَنْ كَانَ يَرْجُو لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا﴾[١].

المعنى اللغوي:

"المِثْلُ: النظير"[٢]؛ لأن "الْمِيم وَالثَّاء وَاللَّام أَصْلٌ صَحِيحٌ يَدُلُّ عَلَى مُنَاظَرَةِ الشَّيْءِ لِلشَّيْءِ. وَهَذَا مِثْلُ هَذَا، أَيْ: نَظِيرُهُ"[٣].

و"المِثْلُ: الشِّبْهُ"[٤] وبتعبير أجلى: المِثْلُ: شِبْهُ الشيءِ في المِثال والقَدْر ونحوِه، حتى في المعنى.[٥] "يُقَال: مَثَلَ فلَانًا فلَانًا، ومَثَّلَه بِهِ: شبَّهَه

(١) سورة الكهف: الآية ١١٠.
ورد قوله -تعالى-: ﴿قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُوحَى إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ﴾ في سورة: فصلت من الآية ٦، ومَا ينسحبَ على آية سورة الكهف ينسحبَ عليها، ومن ثم اكتفيت بها عنها.
(٢) مجمل اللغة، لابن فارس ص٨٢٣ (م ث ل)، وينظر: جمهرة اللغة، لابن دريد ٤٣٢/١ (ث ل م).
(٣) مقاييس اللغة، لابن فارس ٢٩٦/٥ (م ث ل).
(٤) الإبانة في اللغة العربية، لسَلَمة بن مُسْلِم العَوْتبي ٣٥٠/٤، والمحكم والمحيط الأعظم، لابن سيده ١٥٩/١٠ (ل ث م).
(٥) العين، للخليل بن أحمد ٢٢٨/٨ (ث ل م) بتصرف.

بِهِ، وسَوّاه بِهِ. مَثَلَ فلانٌ فُلَانًا: صارَ مِثْلَه، أَي: يَسُدُّ مَسَدَّه"(١). و"تَقُولُ الْعَرَبُ: أَمْثَلَ السُّلْطَانُ فُلَانًا: قَتَلَهُ قَوَدًا، وَالْمَعْنَى أَنَّهُ فَعَلَ بِهِ مِثْلَ مَا كَانَ فَعَلَهُ"(٢). فـ"مِثْلُ" على هذا كلمة تسوية بين شيئين.(٣)

"وَالْمَثَلُ الْمَضْرُوبُ مَأْخُوذٌ مِنْ هَذَا؛ لِأَنَّهُ يُذْكَرُ مُوَرًّى بِهِ عَنْ مِثْلِهِ فِي الْمَعْنَى"(٤)؛ إذ "المَثَلُ: الشيءُ يُضرَبُ للشيء، فيُجْعَل مِثْلَه"(٥)؛ ولهذا جعل اللغويون المِثْلَ والمَثَلَ بمعنى واحد.(٦)

ومن شواهد هذه المادة قوله الله -تعالى-: ﴿فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرًا سَوِيًّا﴾(٧) أَي: تصوَّر.(٨) "ويقال: امْتثلتُ مِثَالَ فلَانٍ، أَي: احتذيتُ حَذْوَه، وسَلَكْت طَرِيقته"(٩). "والطَّرِيقَةُ المُثْلَى: التي هي أَشْبَهُ بالحَقِّ. وقوله -تعالى-: ﴿إِذْ يَقُولُ أَمْثَلُهُمْ طَرِيقَةً﴾(١٠) مَعْناه: أَعْدَلُهُم وأَشبَهُهُم بأَهْلِ الحَقِّ"(١١).

الدراسة:

بينت سلفًا أن كلمة "مِثْل" عند أهل اللغة تدل على التشابه والتناظر بين الشيئين في المثال والقدر والمعنى ونحوها، وثمة طائفة من الناس قد

(١) تاج العروس، للزبيدي ٣٨٥/٣٠ (م ث ل)، وينظر: جمهرة اللغة، لابن دريد ٤٣٢/١ (ث ل م).
(٢) مقاييس اللغة ٢٩٦/٥ (م ث ل).
(٣) ينظر: الصحاح ٥/ ١٨١٦ (م ث ل)، واللسان ٦١٠/١١ (م ث ل).
(٤) مقاييس اللغة ٢٩٦/٥ (م ث ل).
(٥) العين ٢٢٨/٨ (ث ل م)، وينظر: الصحاح ٥/ ١٨١٦ (م ث ل)، واللسان ٦١١/١١ (م ث ل).
(٦) ينظر: تهذيب اللغة ٧٠/١٥ (ث ل م)، ولسان العرب ٦١٠/١١ (م ث ل).
(٧) سورة مريم: الآية ١٧ .
(٨) تاج العروس ٣٨٣/٣٠، ٣٨٤ (م ث ل) بتصرف، وينظر: المفردات في غريب القرآن ص٧٥٩.
(٩) تهذيب اللغة ٧٢/١٥ (ل ث م)، ولسان العرب ٦١٤/١١ (م ث ل).
(١٠) سورة طه: من الآية ١٠٤ .
(١١) المحكم والمحيط الأعظم ١٦١/١٠ (ل ث م)، ولسان العرب ٦١٣/١١ (م ث ل)، وينظر: القاموس المحيط ص١٠٥٦ (م ث ل).

عمِهت عقولهم؛ فأجروها على ظاهر معناها في قول الله -تعالى-: ﴿قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُوحَى إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ﴾، فزلت عندها القدم، وتأولوا الآية على أن النبيَّ -صلى الله عليه وسلم- مثلُ غيره من البشر[1]، ولم يتميز عنهم بشيء عدا الوحي، وبعضهم -ممن خلا من دُرْبة وأدب- غالى في لفظه، فقال: هو حامل بريد ليس إلا. وهذا المعنى الدلالي الظاهر ممتنع، وبطلانه بيّن، وفساده معلوم.

وذلك لأن دلالة مثلية النبي -صلى الله عليه وسلم- للبشر تثبت من وجه وتنتفي من وجوه، ودونك بسط القول فيها:

أما ثبوتها، فيتأتى من كونه -صلى الله عليه وسلم- بشرًا من بني آدم مثلَهم في الجنس والصورة والهيئة[2]، ويجري عليه -وعلى إخوانه من الأنبياء- ما يجري على غيره من الأعراض البشرية[3]، من الأكل والشرب والنوم والغضب والنسيان والتزوج... وهاكم بعض السياقات اللغوية الدالة على هذا:

١- ما ورد أن النَّبِيَّ -ﷺ- لَمَّا سها في صلاته وسَلَّمَ قِيلَ لَهُ: "يَا رَسُولَ اللَّهِ، أَحَدَثَ فِي الصَّلاَةِ شَيْءٌ؟ قَالَ: "وَمَا ذَاكَ"؟، قَالُوا: صَلَّيْتَ كَذَا وَكَذَا، فَثَنَى رِجْلَيْهِ، وَاسْتَقْبَلَ القِبْلَةَ، وَسَجَدَ سَجْدَتَيْنِ، ثُمَّ سَلَّمَ، فَلَمَّا أَقْبَلَ عَلَيْنَا بِوَجْهِهِ، قَالَ: "إِنَّهُ لَوْ حَدَثَ فِي الصَّلاَةِ شَيْءٌ لَنَبَّأْتُكُمْ بِهِ، وَلَكِنْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ، أَنْسَى كَمَا تَنْسَوْنَ، فَإِذَا نَسِيتُ فَذَكِّرُونِي، وَإِذَا شَكَّ أَحَدُكُمْ فِي صَلاَتِهِ، فَلْيَتَحَرَّ الصَّوَابَ، فَلْيُتِمَّ عَلَيْهِ، ثُمَّ لِيُسَلِّمْ، ثُمَّ يَسْجُدُ سَجْدَتَيْنِ"[4].

---

(١) سمعتُها من أحد الشيوخ في الروضة الشريفة، حيث لَحِظَ فينا لهفتنا وتهافتنا على دخولها؛ فقال عن النبي -صلى الله عليه وسلم-: هو مثلك.

(٢) ينظر: جامع البيان للطبري ٤٢٩/٢١ .

(٣) أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن، لمحمد الأمين الشنقيطي ٣٥٦/٣ بتصرف، وينظر: المفردات في غريب القرآن ص١٢٥.

(٤) صحيح البخاري ٨٩/١ برقم (٤٠١)، وصحيح مسلم ٤٠٠/١ برقم (٥٧٢)، واللفظ للبخاري.

٢-ومنه ما رواه أنس بن مالك -رضي الله عنه- قال: جَاءَ ثَلاَثَةُ رَهْطٍ إِلَى بُيُوتِ أَزْوَاجِ النَّبِيِّ -ﷺ- يَسْأَلُونَ عَنْ عِبَادَةِ النَّبِيِّ -ﷺ- فَلَمَّا أُخْبِرُوا كَأَنَّهُمْ تَقَالُّوهَا[١]، فَقَالُوا: وَأَيْنَ نَحْنُ مِنَ النَّبِيِّ -ﷺ ؟ قَدْ غُفِرَ لَهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِهِ وَمَا تَأَخَّرَ، قَالَ أَحَدُهُمْ: أَمَّا أَنَا فَإِنِّي أُصَلِّي اللَّيْلَ أَبَدًا. وَقَالَ آخَرُ: أَنَا أَصُومُ الدَّهْرَ وَلاَ أُفْطِرُ. وَقَالَ آخَرُ: أَنَا أَعْتَزِلُ النِّسَاءَ فَلاَ أَتَزَوَّجُ أَبَدًا. فَجَاءَ رَسُولُ اللَّهِ -ﷺ- إِلَيْهِمْ، فَقَالَ: "أَنْتُمُ الَّذِينَ قُلْتُمْ كَذَا وَكَذَا؟ أَمَا وَاللَّهِ إِنِّي لَأَخْشَاكُمْ لِلَّهِ وَأَتْقَاكُمْ لَهُ، لَكِنِّي أَصُومُ وَأُفْطِرُ، وَأُصَلِّي وَأَرْقُدُ، وَأَتَزَوَّجُ النِّسَاءَ، فَمَنْ رَغِبَ عَنْ سُنَّتِي فَلَيْسَ مِنِّي"[٢].

٣-ومنه ما روي عَنْ أَبِي مَسْعُودٍ، قَالَ: أَتَى النَّبِيَّ ﷺ رَجُلٌ، فَكَلَّمَهُ؛ فَجَعَلَ تُرْعَدُ فَرَائِصُهُ، فَقَالَ لَهُ: "هَوِّنْ عَلَيْكَ، فَإِنِّي لَسْتُ بِمَلِكٍ، إِنَّمَا أَنَا ابْنُ امْرَأَةٍ تَأْكُلُ الْقَدِيدَ"[٣].

فتلك براهين ثلاثة -وغيرها كثير- تكشف عن وجه التماثل المراد من الآية. ولم يكن قط هذا التماثل ليزدريَه أو يمسَّ رتبته أو يُوهِمَ تهكمًا، كما حكى التنزيل عن أهل الجاهلية، في قوله -سبحانه-: ﴿وَقَالُوا مَالِ هَذَا الرَّسُولِ يَأْكُلُ الطَّعَامَ وَيَمْشِي فِي الْأَسْوَاقِ﴾ [٤]. قال الشيخ الشعراوي -رحمهَ الله-: "وماَ بشريَّتُه إلا للإيناسَ والإلْف"[٥].

وأما أوجه انتفاء مثليته ﷺ للبشر وتميزه بما ليس فيهم، فكثيرة، وقد وفَّتها كتب الشمائل، ويشهد له السياقات اللغوية الآتية:

---

(١) أي: استقلُّوها. النهاية في غريب الحديث والأثر ١٠٤/٤، ولسان العرب ٥٦٣/١١ (ق ل ل).

(٢) صحيح البخاري ٢/٧ برقم (٥٠٦٣)، وصحيح مسلم ١٠٢٠/٢ برقم (١٤٠١)، واللفظ للبخاري.

(٣) سنن ابن ماجه ١١٠١/٢ برقم (٣٣١٢)، والمستدرك على الصحيحين، للحاكم ٥٠/٣ برقم (٤٣٦٦).

(٤) سورة الفرقان: من الآية ٧.

(٥) تفسير الشعراوي ١٠٠٠٨/١٦.

١-أنه -ﷺ- يرى مِن خلفِه كما يرى مِن أمامِه، فقد روى أبو هريرة -رضي الله عنه- قَالَ: صَلَّى رَسُولُ اللهِ -ﷺ- يَوْمًا، ثُمَّ انْصَرَفَ، فَقَالَ: "يَا فُلَانُ، أَلَا تُحْسِنُ صَلَاتَكَ؟ أَلَا يَنْظُرُ الْمُصَلِّي إِذَا صَلَّى كَيْفَ يُصَلِّي؟ فَإِنَّمَا يُصَلِّي لِنَفْسِهِ، إِنِّي وَاللهِ لَأُبْصِرُ مِنْ وَرَائِي كَمَا أُبْصِرُ مِنْ بَيْنِ يَدَيَّ"(١).

وهي رؤية حقيقية وليست مجازية، قال الإمام النووي: "قَالَ الْعُلَمَاءُ: مَعْنَاهُ أَنَّ اللَّهَ -تَعَالَى- خَلَقَ لَهُ -ﷺ- إِدْرَاكًا فِي قَفَاهُ يُبْصِرُ بِهِ مِنْ وَرَائِهِ، وَقَدِ انْخَرَقَتِ الْعَادَةُ لَهُ -ﷺ- بِأَكْثَرَ مِنْ هَذَا، وَلَيْسَ يَمْنَعُ مِنْ هَذَا عَقْلٌ وَلَا شَرْعٌ، بَلْ وَرَدَ الشَّرْعُ بِظَاهِرِهِ؛ فَوَجَبَ الْقَوْلُ بِهِ. قَالَ الْقَاضِي: قَالَ أَحْمَدُ بْنُ حَنْبَلٍ -رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى- وَجُمْهُورُ الْعُلَمَاءِ: هَذِهِ الرُّؤْيَةُ رُؤْيَةٌ بِالْعَيْنِ حَقِيقَةً"(٢).

ورؤيته -صلى الله عليه وسلم- من ورائه خرق للعادة دائم، وليس لهذا الموقف خاصة، ولتتأمل إيثاره الفعل المضارع "أُبْصِر"؛ ليفهم عنه التجدد والحدوث.

٢- أنه -صلى الله عليه وسلم- أوتي المقدرة على وصال الصيام دون فطر أو تسحر من غير نصب ولا وصب، ويشهد لهذا قوله -صلى الله عليه وسلم- : "إِيَّاكُمْ وَالْوِصَالَ، إِيَّاكُمْ وَالْوِصَالَ. قَالُوا: فَإِنَّكَ تُوَاصِلُ؟ يَا رَسُولَ اللهِ! فَقَالَ: إِنِّي لَسْتُ كَهَيْئَتِكُمْ؛ إِنِّي أَبِيتُ يُطْعِمُنِي رَبِّي، وَيَسْقِينِي"(٣).

٣- أن قلبه -صلى الله عليه وسلم- لا يغفل حين ينام كما تغفل القلوب، "وَلِذَلِكَ كَانَ يَنَامُ حَتَّى يُسْمَعَ فَخِيخُهُ،(٤) ثُمَّ يُصَلِّي مِنْ غَيْرِ أَنْ يَتَوَضَّأَ"(٥). ويعضد هذا أن أم المؤمنين عائشة -رضي الله عنها- سألتْ رسولَ الله -

(١) صحيح مسلم ٣١٩/١ برقم (٤٢٣)، والسنن الكبرى، للبيهقي ٤٥٥/١ برقم (٩٤٧)، واللفظ لمسلم.
(٢) المنهاج شرح صحيح مسلم بن الحجاج، للنووي ١٥٠/٤.
(٣) الموطأ للإمام مالك ٤٣٠/٣ برقم (١٠٦٠)، وصحيح مسلم ٢٧٦/٢ برقم (١١٠٥)، واللفظ للإمام مالك.
(٤) الفَخِيخ: دون الغَطِيط في النوم. تهذيب اللغة ٨/٧ (خ ف).
(٥) تأويل مختلف الحديث، لابن قتيبة الدينوري ص٣٥٥ .

صلى الله عليه وسلم-: "يَا رَسُولَ اللَّهِ، تَنَامُ قَبْلَ أَنْ تُوتِرَ؟ قَالَ: تَنَامُ عَيْنِي وَلاَ يَنَامُ قَلْبِي"(١).

٤- أن عَرَقَه -صلى الله عليه وسلم- أطيبُ من الطيب، وليس هذا لغيره، فقد ثبت في الصحيح أن الصحابة -رضي الله عنهم- كانوا يخلطون عَرَقَهُ بطيبهم؛ ليطيبه؛ فيزدادَ حسنًا، فعَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ -رضي الله عنه- قَالَ: "دَخَلَ عَلَيْنَا النَّبِيُّ -ﷺ- فَقَالَ(٢) عِنْدَنَا، فَعَرِقَ، وَجَاءَتْ أُمِّي بِقَارُورَةٍ، فَجَعَلَتْ تَسْلُتُ الْعَرَقَ فِيهَا، فَاسْتَيْقَظَ النَّبِيُّ -ﷺ- فَقَالَ: يَا أُمَّ سُلَيْمٍ، مَا هَذَا الَّذِي تَصْنَعِينَ؟ فَقَالَتْ: هَذَا عَرَقُكَ نَجْعَلُهُ فِي طِيبِنَا، وَهُوَ مِنْ أَطْيَبِ الطِّيبِ"(٣).

فهذه وجوه أربعة -والأسفار بغيرها زاخرة- تقضي بأن "مِثْل" في الآية الكريمة ليست على ظاهر معناها من التسوية الكاملة بين النبي -صلى الله عليه وسلم- والبشر، وإنما أشبهَهُمْ في صفة وانماز عنهم بصفات.

فإن قيل: قد عُلم مما سبق أن مماثلتَه -صلى الله عليه وسلم- البشرَ في كونه آدميًّا على صورتهم وهيئتهم فقط، ثم تميز عنهم بما لا يحصى من الخصائص، فما دلالة نعته -صلى الله عليه وسلم- بالمثلية البشرية المطلقة -بحسب الظاهر- ثم شفعِها بأنه يوحى إليه، دون غيره من النعوت؟ فالجواب يتأتى من:

الأول- أن الآية وردت في سورة الكهف حيث الإخبارُ عن غيبيات لا يدريها النبي -صلى الله عليه وسلم- إلا بالوحي، كقصة أهل الكهف، وخبر ذي القرنين، وعرض جهنم للكافرين يوم القيامة؛ ومن ثم ناسبها ذكر امتيازه بالوحي دون غيره، وكأن الآية تقول: "قُلْ لِهَؤُلَاءِ الْمُشْرِكِينَ الْمُكَذِّبِينَ بِرِسَالَتِكَ إِلَيْهِمْ: ﴿إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ﴾ فَمَنْ زَعَمَ أَنِّي كَاذِبٌ، فَلْيَأْتِ بِمِثْلِ مَا جِئْتُ بِهِ، فَإِنِّي لَا أَعْلَمُ الْغَيْبَ فِيمَا أَخْبَرْتُكُمْ بِهِ مِنَ الْمَاضِي، عَمَّا سَأَلْتُمْ مِنْ قِصَّةِ

(١) صحيح البخاري ١٩١/٤ برقم (٣٥٦٩)،
(٢) من القيلولة، وليس من القول.
(٣) صحيح مسلم ٣٨٧/١٩ برقم (١٢٣٩٥).

أَصْحَابِ الْكَهْفِ، وَخَبَرِ ذِي الْقَرْنَيْنِ، مِمَّا هُوَ مُطَابِقٌ فِي نَفْسِ الْأَمْرِ، لَوْلَا مَا أَطْلَعَنِي اللَّهُ عَلَيْهِ، وَأَنَا أُخْبِرُكُمْ ﴿أَنَّمَا إِلَهُكُمْ﴾ الَّذِي أَدْعُوكُمْ إِلَى عِبَادَتِهِ، ﴿إِلَهٌ وَاحِدٌ﴾ لَا شَرِيكَ لَهُ"(١) "أَيْ: مَا أَنَاَ إِلَّا بَشَرٌ لَا أَتَجَاوَزُ الْبَشَرِيَّةَ إِلَى الْعِلْمِ بِالْمُغَيَّبَاتِ"(٢)، فـ"لا أعلم إلا ما يعلمني الله -تعالى-"(٣)، و"لا أدعي الإحاطة على كلماته"(٤).

الثاني- أن إطلاق كلمة "مِثْل" في الآية الكريمة -حتى أوهم ظاهرُها تناظرَه -صلى الله عليه وسلم- مع غيره من البشر- إنما كان لتعليمه التواضعَ وهضمَ النفْس، "قال ابن عباس: عَلَّمَ اللهُ -تعالى- رسولَه التواضعَ؛ لئلا يَزْهَى عَلَى خَلْقِهِ، فَأَمَرَهُ بأن يُقِرَّ علَى نفسِه بأنه آدميٌّ كغيرِه إلا أنه أُكْرِمَ بالوحي"(٥).

الثالث- أن دلالة المثلية المطلقة للبشر -كما يوحي ظاهر الكلمة- فيه ملمح إلى نفي صفة المَلَكِيَّةِ عنه -صلى الله عليه وسلم- ومن هنا يكون المعنى المؤم من قوله -تعالى-: "﴿قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُوحَى إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ﴾: لست ملَكاً ولا جنياً لا يمكنكم التلقيَ منه، ولا أدعوكم إلى مَا تنبو عنه العقول والأسماع"(٦). وقد صرح التنزيل العزيز بذلك، فقال الله -تعالى-: ﴿قُلْ لَا أَقُولُ لَكُمْ عِنْدِي خَزَائِنُ اللَّهِ وَلَا أَعْلَمُ الْغَيْبَ وَلَا أَقُولُ لَكُمْ إِنِّي مَلَكٌ إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَى إِلَيَّ﴾(٧).

الرابع- كأن إرسال كلمة "مِثْل" في الآية الكريمة ﴿بَشَرٌ مِثْلُكُمْ﴾ بلا استظهارِ ما ينفي مطلقَ التشابه بينه -صلى الله عليه وسلم- وبين سائر

(١) تفسير القرآن العظيم، لابن كثير ٢٠٥/٥، وينظر: أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن ٣٥٥/٣.
(٢) التحرير والتنوير ٥٥/١٦ .
(٣) الجامع لأحكام القرآن ٦٩/١١ .
(٤) أنوار التنزيل وأسرار التأويل، للبيضاوي ٢٩٥/٣ .
(٥) الوسيط في تفسير القرآن المجيد، لعلي بن أحمد الواحدي ١٧٢/٣، وينظر: زاد المسير ١١٤/٣، ١١٥، واللباب في علوم الكتاب، لابن عادل الدمشقي ٥٧٩/١٢.
(٦) أنوار التنزيل وأسرار التأويل ٦٧/٥، وينظر: الكشاف ١٨٦/٤.
(٧) سورة الأنعام: من الآية ٥٠.

البشر يومئ إلى تبرئته -صلى الله عليه وسلم- من مِلْكِيَّة هداية التوفيق وتقليب القلوب الضالة من الغواية إلى الإيمان والرشد، وإنما له هداية الدلالة والإرشاد؛ فالمثلية ههنا ثابتة من جهة كون النبي -ﷺ- والبشر في هذا الأمر سواء.

ويكون المعنى -إذ ذاك-: "مَا هُوَ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُهُمْ فِي الْبَشَرِيَّةِ، لَا حَوْلَ لَهُ عَلَى تَقْلِيبِ الْقُلُوبِ الضَّالَّةِ، إِلَى الْهُدَى، وَمَا عَلَيْهِ إِلَّا أَنْ يُبَلِّغَهُمْ مَا أَوْحَى اللَّهُ إِلَيْهِ"(١) لا سيما وقد وردت الآية بصيغة القصر، أَيْ: أَنَا مَقْصُورٌ عَلَى الْبَشَرِيَّةِ دُونَ التَّصَرُّفِ فِي قُلُوبِ النَّاس.(٢) ويعضده قولُ الله -تعالى-: ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ﴾(٣).

وبهذا البيان يتأكد أن دلالة كلمة "مِثْل" في الآية الكريمة لم تُفِدِ التسوية الكاملة على ما يقتضيه المعنى اللغوي المتبادر إلى الأذهان، بل تحققت المماثلة من جهة وانفكت من جهات، فأشبه النبيُّ -صلى الله عليه وسلم- البشرَ في كونه عنصرًا آدميًّا، وتميز عليهم بما ليس لهم من أمور جسمانية -كما أسلفت- وأمور نفسانية كالوحي، لا كما ذهب بعض المفسرين من قصْر تميُّزِ الأنبياء -على من عداهم- على الأمور النفسانية دون الجسمانية، حيث قالوا: "فإن تميُّز الرسل عمن عداهم ليس بأمورٍ جسمانية وإنما هو بأحوالٍ نفسانية، كما أشار إليه -تعالى- بقوله: ﴿قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُوحَى إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ﴾، ﴿لَوْلَا أُنْزِلَ إِلَيْهِ مَلَكٌ فَيَكُونَ مَعَهُ نَذِيرًا﴾(٤)؛ لنعلم صَدقه بتصَديق الملَك"(٥).

ومن ثم بات الآخذ بظاهر هذه الدلالة مردودًا.

❁❁❁❁❁

(١) التحرير والتنوير ٢٣٦/٢٤.
(٢) المرجع السابق: ٢٣٧/٢٤، بتصرف.
(٣) سورة القصص: الآية ٥٦.
(٤) سورة الفرقان: من الآية ٧ .
(٥) أنوار التنزيل وأسرار التأويل ١١٨/٤، وينظر: إرشاد العقل السليم إلى مزايا القرآن الكريم ٢٤٠/٦ .

٢- ضــالاً

قال الله -تعالى-: ﴿وَوَجَدَكَ ضَآلّاً فَهَدَىٰ﴾[١].

المعنى اللغوي:

يدل "الضلال" في كلام العرب على معان كثيرة، منها:

الأول- الضلال ضد الهُدى.[٢] يقال: ضَلَّ فِي الْأَمر ضلالًا، إذا لم يهتدِ لَهُ. وضَلَّ فِي الأَرْض ضلالًا، إذا لم يهتد للسبيل... وَذهب فلَان ضَلَّةً، إذا لم يَدْرِ أَيْن ذهب.[٣] و"عَن ابْن السّكيت (ت٢٤٤هـ): يُقَال: أَضْلَلْتُ بَعِيري وَغَيرَه، إِذا ذهب مِنْك، وَقد ضلِلْتُ المسجدَ والدّارَ، إِذا لم تعرفْ موضعَهما. وَقَالَ أَبُو حَاتِم (ت٢٤٨هـ): ضَلِلْتُ الدَّار وَالطَّرِيق، وكلَّ شَيْء ثابتٍ لَا يَبْرَح. وَيُقَال: ضَلَّني فلانٌ فَلم أَقْدِرْ عَلَيْهِ، أَي: ذَهَبَ عني، وَأنْشد:

والسَّائِلُ المُبْتَغِي كرائمَها ... يَعْلَمُ أَنِّي تَضِلُّني عِلَلِي[٤]

أَي: تذْهب عني"[٥]. وقال الزجاج (ت٣١٠هـ): "ومعنى ضَلَلْتُ الشيءَ وضَلِلْتُ -بكسر اللام وفتحِهَا- أَضِلُّه وَأَضَلُّه، إذا جعلتَه في مكان لم تَدْرِ أين هو"[٦].

"ومنه قولهم: هو ضُلٌّ بنُ ضُلٍّ، إذا كانَ لا يُعْرفُ ولا يُعْرَفُ أبوه. وكذلك: هو الضَلاَلُ ابن التَلاَل"[٧].

---

(١) سورة الضحى: الآية ٧.
(٢) ينظر: جمهرة اللغة ١٤٧/١ (ض ل ل)، والمحكم والمحيط الأعظم ١٥٣/٨ (ض ل ل)، واللسان ٣٩١/١١، ٣٩٢ (ض ل ل).
(٣) ينظر: جمهرة اللغة ١٤٧/١ (ض ل ل).
(٤) البيت من المنسرح، وهو لإبراهيم بن هَرْمَة، في ديوانه ص١٨٧. برواية "المعترِي" بدلًا من "المبتغِي".
كرائم الشيء: خياره ونفائسه. ينظر: النهاية في غريب الحديث والأثر ١٦٧/٤.
(٥) تهذيب اللغة ٣١٨/١١ (ض ل ل)، والصحاح ١٧٤٩/٥ (ض ل ل).
(٦) معاني القرآن وإعرابه ٣٥٩/٣.
(٧) الصحاح ١٧٤٧/٥ (ض ل ل).

وإلى هذا المعنى يُرَدُّ معنى الضلال الشرعي؛ إذ هو: "تركَ الطّريق المستقيم عمدًا كان أو سهوًا، قليلًا كان أو كثيرًا"(١)؛ ومن ثم يقال لكل عدُول عَن الْمنْهَج: ضَلَال.(٢) فالضال -شرعًا- على الإطلاق: من ضل عن أمر الله.(٣)

الثاني- الخفاء والغيبوبة، ومنه قولهم: ضَلَّ الشيءُ: خَفِيَ وغابَ... والضَّلَلُ: الماءُ الذي يَجْرِي تحت الصَّخْرة لا تُصِيبُه الشمسُ وقيل هو الماءُ الذي يَجْرِي بين الشَّجرِ.(٤) "وفي الحديث عن الرجل الذي قال: " لَعَلِّي أَضِلُّ اللهَ"(٥)، يريد: أَضِلُّ عنه، أي: أَخْفَى عليه وأغيبُ. من قوله -تعالى-: ﴿أَءِذَا ضَلَلْنَا فِي الْأَرْضِ﴾(٦) أي: خَفينا، وغِبْنا"(٧) والعرب تقول: "أَضللْتُ الميِّتَ، إِذا دَفَنْتَهُ. وَقَالَ المخَبَّلُ (ت ٢٠هـ):

أَضلَّتْ بَنو قَيْسِ بنِ سَعْدٍ عَميدَها وفارِسَها فِي الدَّهْرِ قَيْسَ بن عَاصِم(٨)"(٩).

الثالث- الغفلة والنسيان، تقول: ضَلَلْتُ الشيء، أي: نَسِيته.(١٠) وبهذا المعنى فُسِّر قول الله -تعالى-: ﴿أَنْ تَضِلَّ إِحْدَاهُمَا فَتُذَكِّرَ إِحْدَاهُمَا الْأُخْرَى﴾(١١) فقالوا: "إن تَنْسَ إحداهما تَذكرْهَا الذاكرةُ فَتَذْكر"(١٢).

---

(١) المفردات في غريب القرآن ص٥١٠، وبصائر ذوي التمييز، للفيروز آبادي ٤٨٢/٣.
(٢) الكليات، لأبي البقاء الكفوي ص٥٧٦، بتصرف.
(٣) الغريبين في القرآن والحديث، لأبي عبيد الهروي ٤/ ١١٣٧، بتصرف.
(٤) المحكم والمحيط الأعظم ١٥٦/٨ (ض ل ل)، بتصرف.
(٥) مسند الإمام أحمد بن حنبل ٢١٦/٣٣ برقم (٢٠٠١٢).
(٦) سورة السجدة: من الآية ١٠ .
(٧) الصحاح ١٧٤٩/٥ (ض ل ل)، وينظر: اللسان ١١/ ٣٩٢ (ض ل ل).
(٨) البيت من الطويل، وهو للمخبَّل السعدي في: المخبل السعدي، حياته وما تبقى من شعره ص١٣٢.
(٩) تهذيب اللغة ٣١٩/١ (ض ل ل).
(١٠) ينظر: كتاب الأفعال لابن القوطية ص٨٨ (ض ل ل)، والمحكم والمحيط الأعظم ١٥٦/٨ (ض ل ل).
(١١) سورة البقرة: من الآية ٢٨٢.
(١٢) معاني القرآن وإعرابه ٣٦٣/١، وينظر: تهذيب اللغة ٣١٩/١١ (ض ل ل).

و"قال ابن عرفة: الضلالة هاهنا: الإغفال والسهو"[١].

الرابع- الضياع والهلكة، يقال: "ضلَّ الشيءُ يَضل ضلالًا، أي: ضاع وهلَك"[٢]، "وأَضَلَّهُ، أي: أَضاعَهُ وأهلكه"[٣]. ومنه ما جاء "فِي حَدِيثِ النَّبِيِّ - ﷺ- أَنَّهُ قَالَ لِبَنِي الْعَنْبَرِ: "لَوْلا أَنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ ضَلالَةَ الْعَمَلِ مَا رَزَيْنَاكُمْ[٤] عِقَالًا"[٥]. قَولُه: ضلالة العمل: هُو من قولكَ: ضلَّ الشَّيء، إذَا ضاعَ وهلك. ومنه: ضَالَّةُ المالِ: وهو ما يَضِلّ عَنْ صاحِبه، ويَضِيع"[٦].

ويلحظ من هذه الدلالات أنها تجتمع على معنىً واحد، وهو ضَياع الشيء وذهابُهُ في غيرِ حَقِّه. وكلُّ جائرٍ عن القصد ضالّ.[٧] وقد أصَّل أبو عمرو بن العلاء هذه المعاني إلى (الغيبوبة)، فقال: "أَصْلُ الضَّلَال: الغَيبوبة، يُقَال: ضلَّ الماءُ فِي اللَّبن، إذا غَاب، وضلَّ الكافِرُ: غَابَ عَن الحُجَّة، وضلَّ الناسِي، إذا غابَ عَنهُ حِفْظُه"[٨].

الدراسة:

إذا قلبت النظر في معاني "الضلال" السالفة الذكر، ألفيت أن أشهرها وأظهرها المعنى الأول، الذي هو نقيض الهدى والرشاد، وقد وردت هذه الكلمة -ببعض مشتقاتها- في الذكر الحكيم، منها قوله -تعالى-: ﴿وَوَجَدَكَ ضَآلًّا

(١) الغريبين في القرآن والحديث ٤/ ١١٣٧.
(٢) الصحاح ١٧٤٨/٥ (ض ل ل)، واللسان ٣٩٥/١١ (ض ل ل).
(٣) الصحاح ١٧٤٨/٥ (ض ل ل). واللسان ٣٩٣/١١ (ض ل ل).
(٤) أصلها: رزأناكم، أي: ما نقصناكم. ينظر: الفائق في غريب الحديث والأثر، للزمخشري ٣٤٦/٢.
(٥) سنن أبي داود ٣٠٩/٣ برقم (٣٦١٢).
(٦) غريب الحديث، للخطابي ٤٨٤/١.
(٧) ينظر: مقاييس اللغة ٢٧٩/٣ (ض ل ل).
(٨) تهذيب اللغة ٣٢٠/١١ (ض ل ل)، وشرح أدب الكاتب، للجواليقي ص٣٩، واللسان ٣٩٠/١١ (ض ل ل).

فَهَدَىٰ﴾، وقد جرى بعضهم على ظاهر هذه الدلالة، واقتحموا على الآية باحتها، وليتهم اجتهدوا فأخطأوا، لكنهم راحوا يتأولون "الضلال" في الآية بالكفر، وينسبون إلى النبي -صلى الله عليه وسلم- ما لا يجوز نسبته إليه، وحاشاه -صلى الله عليه وسلم- ذلك. فاشهد معي عليهم فيما تداولته بعض التفاسير، من ذلك قول الكلبي (ت١٤٦هـ): "﴿وَوَجَدَكَ ضَآلًّا﴾ يعني: كافرًا في قوم ضُلَّال، فهداك للتوحيد"(١). "وقال السُّدِّيِّ (ت١٨٦هـ): كان على أمر قومه أربعين سنة"(٢). "وقال مجاهد: ووجدك ضالًا. يعني عن الهدى، فهداك لدينه"(٣).

وبعض اللغويين ترفق قليلًا، فقال -في تفسيرها-: "يريد: في قوم ضلاّل، فهداك"(٤) فلا تدري: آلظرفية (في) ههنا تفيد كونه على عقيدتهم، أم أنه فقط قضى أربعين عامًا بين ظهراني قوم ضالين، ولم ينزل على معتقدهم؟. وبعضهم يقتصر على هذا القول(٥)، ولا يفنده أو يردفه بقول صائب؛ مما يلبس على القارئ؛ فيتوهم صحته.

وقد انبثق هذا التفسير عن الدلالة الشرعية للضَّلال، الذي هو ضد الهداية، وبمعنى العدول عن الطريق المستقيم، وتلك الدلالة داحضة، وثمة دلائل تقطع ببطلانها وتشهد بفسادها، وتنفي عن النبي -صلى الله عليه وسلم- هذا الرأي الفائل(٦)، وهي:

الأول- اتفق جُمْهُورُ الْعُلَمَاءِ عَلَى أَنَّهُ -صلى الله عليه وسلم- مَا كَفَرَ بِاللَّهِ لَحْظَةً وَاحِدَةً، ثُمَّ قَالَتِ الْمُعْتَزِلَةُ: هَذَا غَيْرُ جَائِزٍ عَقْلًا لِمَا فِيهِ مِنَ التَّنْفِيرِ، وَعِنْدَ

(١) التفسير البسيط، للواحدي ٢٤/ ١١٢، وينظر: المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز، لابن عطية الأندلسي ٤٩٤/٥، ومفاتيح الغيب ١٩٧/٣١ .
(٢) التفسير البسيط ٢٤/ ١١٢، وينظر: جامع البيان ١٤/ ٤٨٨، والمحرر الوجيز ٤٩٤/٥ .
(٣) التفسير البسيط ٢٤/ ١١٢، وينظر: مفاتيح الغيب ١٩٧/٣١ .
(٤) معاني القرآن، للفراء ٢٧٤/٣.
(٥) ينظر: معاني القرآن وإعرابه ٣٤٠/٥.
(٦) الرأي الفائل: الخاطئ، ينظر: الإبانة في اللغة ٦٥٦/٣.

أَهل السنة: هَذَا غَيْرُ مُمْتَنِعٍ عَقْلًا؛ لِأَنَّهُ جَائِزٌ فِي الْعُقُولِ أَنْ يَكُونَ الشَّخْصُ كَافِرًا، فَيَرْزُقَهُ اللَّهُ الْإِيمَانَ وَيُكْرِمَهُ بِالنُّبُوَّةِ، إِلَّا أَنَّ الدَّلِيلَ السَّمْعِيَّ قَامَ عَلَى أَنَّ هَذَا الْجَائِزَ لَمْ يَقَعْ، وَهُوَ قَوْلُهُ -تَعَالَى-: ﴿مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَى﴾[1].[2] فنفي الضلال عنه ﷺ سياق لغوي صريح يؤيد ما اتفق عليه جمهور العلماء.

ولهذا قال العلماء: "والأنبياء يجب أن يكونوا معصومين قبل النبوّة وبعدها من الكبائر والصغائر الشائنة، فما بال الكفر والجهل بالصانع؟ ما كانَ لَنا أَنْ نُشْرِكَ بِاللَّهِ مِنْ شَيْءٍ، وكفى بالنبي نقيصة عند الكفار أن يسبق له كفر"[3].

الثاني- سياق لغوي في قول الله -تعالى-: ﴿وَلَقَدْ أُوحِيَ إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾[4] والمعنى: "﴿لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ﴾ أي: ثوابك، وإن كنت كريماً عليَّ. فلو أشركت بالله، ليحبطنّ عملك وَلَتَكُونَنَّ مِنَ الْخاسِرِينَ في الآخرة. فكيف لو أشرك غيرك، فالله -تعالى- علَّم أن النبيّ -صلّى الله عليه وسلم- لا يشرك بالله، ولكنه أراد تنبيهاً لأمته، أنَّ من أشرك بالله، حبط عمله، وإن كان كريماً على الله"[5]. "وَقِيلَ: هَذَا أَدَبٌ مِنَ اللَّهِ -عَزَّ وَجَلَّ- لِنَبِيِّهِ وَتَهْدِيدٌ لِغَيْرِهِ، لِأَنَّ اللَّهَ -تعالى- عَصَمَهُ مِنَ الشِّرْكِ"[6].

وقد أحسن الزمخشري في بيان العلة الجامعة لهذه المقاصد من الآية إذ قال: "فإن قلتَ: كيف صح هذا الكلام مع علم الله -تعالى- أنّ رسله لا يشركون ولا تحبط أعمالهم؟ قلتُ: هو على سبيل الفرض، والمحالات يصح فرضها لأغراض، فكيف بما ليس بمحال؟ ألا ترى إلى قوله: ﴿وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَآمَنَ

(١) سورة النجم: الآية ٢ .
(٢) مفاتيح الغيب ١٩٧/٣١، بتصرف، وينظر: التفسير البسيط ١٠٩/٢٤، ١١٠ .
(٣) الكشاف ٧٦٨/٤، والسراج المنير في الإعانة على معرفة بعض معاني كلام ربنا الحكيم الخبير، للخطيب الشربيني ٥٥٢/٤ .
(٤) سورة الزمر: الآية ٦٥.
(٥) بحر العلوم، للسمرقندي ١٩٣/٣ .
(٦) معالم التنزيل في تفسير القرآن، للبغوي ١٣٠/٧ .

مَنْ فِي الْأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعاً﴾[1]؟ يعنى على سبيل الإلجاء، ولن يكون ذلك لامتنَاع الداعَي إليه ووجوَد الصارف عنه"[2].

الثالث–سياق حالي، وذلك أن الله –عز وجل– حفظ النبي ﷺ في الأصلاب من السفاح، ولم يصبه منه شيء؛ ومن هنا "قال ابن عباس –رضي الله عنهما– فِي قَوْلِ اللَّهِ –عَزَّ وَجَلَّ–: ﴿وَتَقَلُّبَكَ فِي السَّاجِدِينَ﴾[3] قَالَ: مَا زَالَ النَّبِيُّ– ﷺ– يَتَقَلَّبُ فِي أَصْلابِ الأَنْبِيَاءِ حَتَّى وَلَدَتْهُ أُمُّه"[4]، فكيف يُتصور أن يحفظ الله –عز وجل– نسبَه من السفاح، ولا يحفظ دينه؟!.

الرابع– أن اللذَيْنِ ذهبا إلى هذا المعنى (الكلبي، والسُّدِّي) وتأوَّلا الآية على هذه الدلالة عدهم علماء الجرح والتعديل من الكذابين ومتروكي الحديث، فأما محمد بن السائب الكلبي فنعتوه مرة بالكذاب، ومرة بالكذاب الساقط، ومرة بأنه ليس بشيءٍ كذابٌ ساقطٌ.[5] وقال عنه يحيى بن معين: ليس بثقة.[6] وأما السُّدِّيُّ –ويراد به هنا محمد بن مروان الملقب بالسُّدِّي الصغير– فجَرَّحَتْهُ كتب الرجال ونعتتْه بأنه مضعَّف وليس ثقة،[7] ومتروك الحديث.[8] وبعضهم قرن بينهما في الوصف، فقال: "كان بالكوفة كذابان: أحدهما: الكلبي، والآخر: السُّدِّيّ"[9].

أما دلالة "الضلال" المرادة في الآية –ذات الشاهد– فقد كثرت فيها أقوال المفسرين واللغويين –وتأولوها بما يليق بالأنبياء– وإليك أبرزها:

---

(١) سورة يونس: من الآية ٩٩ .
(٢) الكشاف ١٤٢/٤ .
(٣) تفسير القرآن العظيم، لابن أبي حاتم ٢٨٢٨/٩، وينظر: تفسير القرآن، لأبي المظفر السمعاني ٧١/٤ .
(٤) سورة الشعراء: الآية ٢١٩ .
(٥) الضعفاء والمتروكين، لابن الجوزي ٦٢/٣، بتصرف، وينظر: أحوال الرجال، لأبي إسحاق الجوزجاني ص٥٤ .
(٦) قبول الأخبار ومعرفة الرجال، لأبي القاسم الكعبي ٧٢/٢، بتصرف.
(٧) ينظر: الضعفاء والمتروكين ٩٨/٣.
(٨) ينظر: الجرح والتعديل، لابن أبي حاتم ٨٦/٨ .
(٩) تهذيب التهذيب ٩/ ١٧٨.

الأول- "أنه -صلى الله عليه وسلم- لم يكن يدري القرآن ولا الشرائع؛ فهداه اللَّه إلى القرآن وشرائع الإسلام"(١) فالمراد بالضلال هنا: عدم معرفة علم الشرائع، وما طريقه السمع.(٢) وهذا قول الجمهور اللغويين والمفسرين.(٣)

واستنهضوا لهذا القولِ أدلةً، منها: قولُ الله -تعالى-: ﴿وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِنْ أَمْرِنَا مَا كُنْتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلَا الْإِيمَانُ﴾(٤).(٥) وقولُه -سبحانه وتعالى-: ﴿نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ بِمَا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ هَذَا الْقُرْآنَ وَإِنْ كُنْتَ مِنْ قَبْلِهِ لَمِنَ الْغَافِلِينَ﴾(٦)(٧) أي: "وإن كنت يا مَحمد من قَبل أن نوحيه إليك لَمن الغَافِلِينَ عَن ذَلك، لا تعلمه ولا شيئًا منه"(٨)، وقولُه -تعالى-: ﴿وَأَنْزَلَ اللَّهُ عَلَيْكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُنْ تَعْلَمُ﴾(٩) "يعْنى: من أَحْكَام الْقُرْآن، وَقيل: مَن علم الْغَيْب"(١٠).

الثاني- "مَا رُوِيَ مَرْفُوعًا أَنَّهُ -عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ- قَالَ: "ضَلَلْتُ عَنْ جَدِّي عَبْدِ الْمُطَّلِبِ وَأَنَا صَبِيٌّ ضَائِعٌ، كَادَ الْجُوعُ يَقْتُلُنِي، فَهَدَانِي اللَّهُ". ذَكَرَهُ الضَّحَّاكُ، وَذَكَرَ تَعَلُّقَهُ(١١) بِأَسْتَارِ الْكَعْبَةِ، وَقَوْلَهُ:

---

(١) معاني القرآن وإعرابه ٣٣٩/٥، ٣٤٠، وينظر: بحر العلوم ٥٩٢/٣، والغريبين في القرآن والحديث ١١٣٧/٤، ومفاتيح الغيب ٩٦/٢٠ ، وتاج العروس ٣٤٤/٢٩ (ض ل ل).

(٢) ينظر: الكشاف ٧٦٨/٤ .

(٣) ينظر: زاد المسير ٤٥٨/٤ .

(٤) سورة الشورى: من الآية ٥٢ .

(٥) ينظر: معاني القرآن وإعرابه ٣٤٠/٥، وينظر: بحر العلوم ٥٩٢/٣، والتفسير البسيط ١٠٩/٢٤ .

(٦) سورة يوسف: الآية ٣ .

(٧) ينظر: التفسير البسيط ١١١/٢٤، ومعالم التنزيل في تفسير القرآن ٤٥٦/٨، ومفاتيح الغيب ١٩٧/٣١.

(٨) جامع البيان ٥٥١/١٥، وزاد المسير ٤١٣/٢ .

(٩) سورة النساء: من الآية ١١٣ .

(١٠) تفسير القرآن، لأبي المظفر السمعاني ٤٧٧/١ .

(١١) الضمير راجع إلى جده عبدالمطلب.

يَا رَبِّ رُدَّ وَلَدِي مُحَمَّدًا... ارْدُدْهُ رَبِّي وَاصْطَنِعْ عِنْدِي يَدَا[1]

فَمَا زَالَ يُرَدِّدُ هَذَا عِنْدَ الْبَيْتِ حَتَّى أَتَاهُ أَبُو جَهْلٍ عَلَى نَاقَةٍ وَبَيْنَ يَدَيْهِ مُحَمَّدٌ وَهُوَ يَقُولُ: لَا نَدْرِي مَاذَا نَرَى مِن ابْنِكَ، فَقَالَ عَبْدُ الْمُطَّلِبِ وَلِمَ؟ قَالَ: إِنِّي أَنَخْتُ النَّاقَةَ وَأَرْكَبْتُهُ مِنْ خَلْفِي فَأَبَتِ النَّاقَةُ أَنْ تَقُومَ، فَلَمَّا أَرْكَبْتُهُ أَمَامِي قَامَتِ النَّاقَةُ، كَأَنَّ النَّاقَةَ تَقُولُ: يَا أَحْمَقُ هُوَ الْإِمَامُ فَكَيْفَ يَقُومُ خَلْفَ الْمُقْتَدِي؟!. وَقَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: رَدَّهُ اللَّهُ إِلَى جَدِّهِ بِيَدِ عَدُوِّهِ كَمَا فَعَلَ بِمُوسَى حِينَ حَفِظَهُ عَلَى يَدِ عَدُوِّهِ"[2].

الثالث- "قَالَ سَعِيدُ بْنُ الْمُسَيَّبِ: خَرَجَ رَسُولُ اللَّهِ -ﷺ- مَعَ عَمِّهِ أَبِي طَالِبٍ فِي قَافِلَةِ مَيْسَرَةَ غُلَامِ خَدِيجَةَ، فَبَيْنَمَا هُوَ رَاكِبٌ ذَاتَ لَيْلَةٍ ظَلْمَاءَ نَاقَةً إِذْ جَاءَ إِبْلِيسُ، فَأَخَذَ بِزِمَامِ النَّاقَةِ، فَعَدَلَ بِهِ عَنِ الطَّرِيقِ، فجاء جبريل، فَنَفَخَ إِبْلِيسَ نَفْخَةً وَقَعَ مِنْهَا إِلَى أَرْضِ الْحَبَشَةِ، وَرَدَّهُ إِلَى الْقَافِلَةِ، فَمَنَّ اللَّهُ عَلَيْهِ بِذَلِكَ"[3].

الرابع- "﴿وَوَجَدَكَ ضَالًّا﴾ لا على الطّبيعة البشريّة التي هي النّفس الأمّارة بالسّوء، فهداك بالعقل قبل الوحي بالكتاب"[4].

وبعد، فهذه أربعة تآويل -وغيرها كُثْرٌ- إليها ذهبت مدارك بعض المفسرين واللغويين، وقد اصطفيتها من بين ما يربو على عشرين تفسيرًا، وهذه الأقوال تأتلف جميعًا على المعنى اللغوي الأول، حيث يُطلق "الضلالُ" على من لم يهتدِ إلى مطلوبه، ولم يَدْرِه، ولكل منها وجه وجيه، خلا أن

(١) البيت من الرجز، وقد نسب إلى عبدالمطلب جد النبي -صلى الله عليه وسلم- في: نهاية الأرب في فنون الأدب، لشهاب الدين النويري ٨٥/١٦.
(٢) مفاتيح الغيب ١٩٧/٣١، وينظر: روح البيان، لإسماعيل حقي ٤٥٧/١٠، ومراح لبيد لكشف معنى القرآن المجيد، محمد بن عمر الجاوي ٦٤١/٢ .
هذه القصة رويت بألفاظ مختلفة، وتتفق جميعها في أن النبي -صلى الله عليه وسلم- تاه في مكة وردَّه الله إلى جده، وأصحها ما صححه الحاكم النيسابوري على شرط مسلم، ينظر: المستدرك على الصحيحين ٦٥٩/٢ برقم (٤١٨٤).
(٣) معالم التنزيل في تفسير القرآن ٤٥٦/٨، وينظر: عِنَايةُ القَاضِي وكِفَايةُ الرَّاضِي عَلَى تفْسيرِ البَيضَاوي، لشهاب الدين الخفاجي ٣٧١/٨، وروح المعاني ٣٨١/١٥ .
(٤) دَرْجُ الدُّرر في تَفسِيرِ الآيِ والسُّوَر، لعبد القاهر الجرجاني ٧١٦/٢ .

أشبهها بالآية وأقربها مقصدًا القولُ الأول[1]؛ لقوة الدليل عليه، ولأن فيه استظهارًا لأجلِّ نعم الله على النبي -صلى الله عليه وسلم- فلا أعظم نعمةً من القرآن الكريم والشريعة الغراء، وليس ردُّه بعد التيه أجلَّ من اختصاصه بالوحي.

ومنتهى القول أن من حمل "الضلال" في الآية الكريمة على معناه الشرعي- منسوبًا إلى النبي -صلى الله عليه وسلم- فقد ثَبَّج الكلام تَثْبيجًا، ولا يخلو قوله من ضعة؛ ومن ثَم أضحى قولُه رَدًّا.

❁❁❁❁❁

(١) ينظر: المحرر الوجيز ٥/٤٩٤، والمعجم الاشتقاقي المؤصل لألفاظ القرآن الكريم، د. محمد حسن جبل ٣/١٢٩٨ .

ثانيًا- نبي الله موسى -عليه الصلاة والسلام

جَانّ

قال الله -تعالى-: ﴿وَأَلْقِ عَصَاكَ فَلَمَّا رَآهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَانٌّ وَلَّى مُدْبِرًا وَلَمْ يُعَقِّبْ﴾(١).

المعنى اللغوي:

تأتي كلمة "الجانّ" في اللغة لمعنيين:

الأول- "الجانّ: أَبُو الجِن"(٢) وقيل: الجانّ: الجِنّ.(٣) "وجَمْعُهُم: الجِنَّةُ"(٤) "والجِنُّ: خلاف الإنس، والواحد: جِنِّيٌّ"(٥) ومن شواهد هذه الكلمة في التنزيل العزيز قول الله -تعالى-: ﴿وَالْجَانَّ خَلَقْنَاهُ مِنْ قَبْلُ مِنْ نَارِ السَّمُومِ﴾(٦)(٧)، وقولُ الله -تعالى-: ﴿وَلَقَدْ عَلِمَتِ الْجِنَّةُ إِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ﴾(٨)(٩).

ومادة (ج ن نَ) تَدلُ عَلَى الستر والتستر.(١٠) "يُقَال: جنَّ عَلَيْهِ الليلُ، وأجنَّهُ اللَّيْلُ، إذا أظْلَم حَتَّى يَستُرَه بظلمته. وَيُقَال لكلِّ مَا سَتَرَ: قَدْ جَنَّ، وَقد أَجَنَّ."(١١)

---

(١) سورة النمل: من الآية ١٠ .
ورد هذا الشاهد في سورة القصص: من الآية ٣١، حيث قال الله -تعالى-: ﴿وَأَنْ أَلْقِ عَصَاكَ فَلَمَّا رَآهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَانٌّ وَلَّى مُدْبِرًا وَلَمْ يُعَقِّبْ﴾، وهي تؤدي الدلالة نفسها التي في سورة النمل؛ ولهذا اكتفيت بها عن معالجتها.

(٢) معجم ديوان الأدب، للفارابي ٣/٥٩، وينظر: المحكم والمحيط الأعظم ٧/٢١٥ (ج ن ن)، وشمس العلوم ٢/٩٤٠ (جن).

(٣) المنجد في اللغة، لكراع النمل ص١٦٠(ج ن ن)، والمحكم والمحيط الأعظم ٧/٢١٥ (ج ن ن)، بتصرف فيهما.

(٤) المحكم والمحيط الأعظم ٧/٢١٥ (ج ن ن)، بتصرف.

(٥) تهذيب اللغة ١٠/٢٦٥ (ج ن ن).

(٦) سورة الحجر: الآية ٢٧ .

(٧) ينظر: تاج العروس ٣٤/٣٧٠ (ج ن ن).

(٨) سورة الصافات: من الآية ١٥٨ .

(٩) ينظر: اللسان ١٣/٩٥ (ج ن ن)

(١٠) ينظر: مقاييس اللغة ١/٤٢١ (ج ن ن).

(١١) تهذيب اللغة ١٠/٢٦٨ (ج ن ن)، وينظر: المحكم والمحيط الأعظم ٧/٢١١ (ج ن ن)، وشمس العلوم ٢/٩٥٩ (جن).

ومَرَدُّ "الجِّن" إلى هذا المعنى، ولهذا قال الراغب: "أصل الجِنِّ: ستر الشيء عن الحاسة"[١] "سُمُّوا بِذَلِكَ؛ لِأَنَّهُمْ مُتَسَتِّرُونَ عَنْ أَعْيُنِ الْخَلْقِ، قَالَ اللَّهُ -تَعَالَى-: ﴿إِنَّهُ يَرَاكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُ مِنْ حَيْثُ لَا تَرَوْنَهُمْ﴾[٢]"[٣] ومنه "الجَنَّة: هِيَ دَارُ النَّعِيم فِي الدَّارِ الْآخِرَةِ، مِنَ الاجْتِنَان وَهُوَ السّتْر؛ لِتَكَاثُفِ أَشْجَارِهَا وتَظْلِيلِها بالْتِفَافِ أغْصَانِهَا. وسُمّيَتْ بالجَنَّة وَهِيَ المَرّة الواحِدة مِنْ مَصْدَر: جَنَّه جَنًّا، إِذَا سَتَره، فكأنَّها سَتْرَةٌ واحِدة؛ لِشدّة الْتِفَافها وإِظْلَالِهَا"[٤]. "وجَنَانُ اللَّيْلِ: سَوَادُهُ وَسَتْرُهُ الْأَشْيَاءَ. قَالَ:

وَلَوْلَا جَنَانُ اللَّيْلِ أَدْرَكَ رَكْضُنَا... بِذِي الرِّمْثِ وَالْأَرْطَى عِيَاضَ بْنَ نَاشِبِ[٥]"[٦]

الثاني- الجانُّ: الصَّغِير من الْحَيَّات.[٧] ولونه أبيض،[٨] وقيل: هو "أكحل الْعَينَيْنِ يضْرب إِلَى الصُّفْرَة، لَا يُؤْذِي، وَهُوَ فِي بيُوت النَّاس. وَقَالَ سِيبَوَيْهِ: وَالْجمع: جِنَّان[٩]، وَقَالَ الخطفي جد جرير يصف إبِلًا:

---

(١) المفردات في غريب القرآن، ص٢٠٣ (جن).
(٢) سورة الأعراف: من الآية ٢٧ .
(٣) مقاييس اللغة ٤٢٢/١ (ج ن ن)، وينظر: تهذيب ٢٦٦/١٠ (ج ن ن)، واللسان ٩٥/١٣ (ج ن ن).
(٤) النهاية في غريب الحديث والأثر ٣٧٠/١ (جن)، واللسان ٩٢/١٣ (ج ن ن)، وينظر: المفردات في غريب القرآن ص٩٨ .
(٥) البيت من الطويل، وهو لدريد بن الصمة، في ديوانه ص٣٩.
معنى البيت: يَقُول نلتقى بالقلوب لَا بالأجسام وَإِن قرب المزار فَلَا مَزَار على الْحَقِيقَة وَيَغْدُو الْجنان، أي: يَغْدُو الْقلب إِلَيْهِ وَيروح، أي: يتَذَكَّر، فيتصور في الْقلب فكأنا قد الْتَقَيْنَا. شرح ديوان المتنبي، للعكبري ٢٤٥/١.
(٦) مقاييس اللغة ٤٢٢/١ (ج ن ن).
(٧) المحكم والمحيط الأعظم ٩٦/٢ (ع ث ب) بتصرف، والغريبين في القرآن والحديث ٣٧٩/١، واللسان ٢٣٦/١ (ب ع ث)، وبصائر ذوي التمييز ٣٥٤/٢.
(٨) ينظر: العين ٢١/٦ (ج ن ن)، وتهذيب اللغة ٢٦٦/١٠ (ج ن ن).
(٩) ينظر: الكتاب ٦١٤/٣.

أَعْنَاقَ جِنَّانٍ وهَامًا رُجَّفًا وعَنَقًا بَعْدَ الرَّسِيمِ خَيْطَفَا[1]"[2].

ومن ذلك الحديث ""أَنَّهُ نَهى عَنْ قَتْل الجِنَّان"[3]، هِيَ الحيَّاتُ الَّتي تَكُون فِي البُيُوت، واحِدُها: جَانّ، وَهُوَ الدَّقِيق الخَفِيف"[4] "وَقيل: الْبيض الزِّقَاق"[5].

والفرق بين "الجانّ" -على هذا المعنى- والثعبانِ أن الثُّعبان: الحيَّة الضخم الطَّوِيل الذّكر خَاصَّة.[6]

الدراسة:

وردت كلمة "الجانّ" في قول الله -تعالى-: ﴿وَأَلْقِ عَصَاكَ فَلَمَّا رَآهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَانٌّ وَلَّى مُدْبِرًا وَلَمْ يُعَقِّبْ﴾ وهنا تقضي النظرةَ الخاطفة بأن المراد بـ"الجانّ" المعنى اللُّغوي الأول -الذي سلف بيانه- وهو أبو الجن؛ لا سيما وأنه الأظهر والأشهر الفاشي؛ ومن ثم تلتقفه الأذهان، وعليها يفسرون الآية بأن سيدنا موسى -عليه الصلاة والسلام- ألقى العصى، فلما رآها تتحرك وتضطرب كأنها جِنِّيٌّ ولَّى هاربًا، ولم يلتفت إليها.

وربما يماريك أحدهم مستشهدًا على هذا التأويل، ومؤيِّدًا وجهتَه بأن نبي الله موسى -عليه الصلاة والسلام- من شدة ذعره جُثَّ منها فَرَقًا وامتلأ

---

(١) البيت من الرجز، وقد نسب إلى حُذيفةُ بنُ بدرِ بن سَلمة جد جرير الخطفي، في: شرح نقائض جرير والفرزدق، لأبي عبيدة معمر بن المثنى ١٥٧/١، والشعر والشعراء، لابن قتيبة الدينوري ٤٥٦/١.
وعَنَقًا بَعْدَ الرَّسِيمِ خَيْطَفَا، أي: كأنه يختَطف في مشيه عُنُقَه، أي يجتذب. والخَطَفَى: سَيْرتُه. العين ٢٢١/٤ (خ ط ف).

(٢) المحكم والمحيط الأعظم ٢١٦/٧ (ج ن ن)، واللسان ١٢/ ٩٢ (ج ن ن)، وتاج العروس ٣٧١/٣٤ (ج ن ن).

(٣) ورد بزيادة: "التي في البيوت"، وذلك في: الموطأ للإمام مالك ١٤٢٢/٥ برقم (٣٥٨٠).

(٤) النهاية في غريب الحديث والأثر ٣٠٨/١.

(٥) مشارق الأنوار على صحاح الآثار، للقاضي عياض ١٥٦/١ .

(٦) المحكم والمحيط الأعظم ٩٥/٢ (ع ث ب)، واللسان ٢٣٦/١ (ب ع ث) بتصرف فيهما، وينظر: تهذيب اللغة ٢٦٦/١٠ (ج ن ن).

قلبه رُعْبًا، فَفَرَّ من غير عَوْدٍ إليها أو التفات، ولا يُتصور هذا من حية صغيرة رقيقة دقيقة، لا سيما وأن الأنبياء أثبت قلبًا عمن عداهم من البشر.

لكن من استقرأ الآية الكريمة وتحسس المعنى الصواب أدرك أن المفسرين -ومعهم اللغويون- حملوا "الجانّ" -في الآية الكريمة- على المعنى الثاني وهو الحية الصغيرة.(١) ولم يكن للآية من قصد الجِنِّيِّ مأرب.

وينصر هذه الدلالةَ -تفسيرَ "الجان" بالحية- أمران:

الأول- سياق حالي، يكمن في أن التنزيل العزيز صرح في موضع آخر -وفي الموقف عينِه- أن العصا استحالت حيةً فور أن ألقاها سيدنا موسى -عليه الصلاة والسلام- حيث قال الله -سبحانه-: ﴿قَالَ أَلْقِهَا يَا مُوسَى. فَأَلْقَاهَا فَإِذَا هِيَ حَيَّةٌ تَسْعَى. قَالَ خُذْهَا وَلَا تَخَفْ سَنُعِيدُهَا سِيرَتَهَا الْأُولَى﴾(٢)، والمعنى: فَألقاهَا موسى، فجعلها الله حية تسعى، وكانت قبلَ ذلك خشبة يابسة وعصًا يتوكأ عليها، ويهشّ بها على غنمه، فصارت حية بأمر الله... وعن ابن عباس -رضي الله عنهما-: ولم تكن قبل ذلك حية.(٣)

الثاني- لو حُمل "الجانّ" على الدلالة اللغوية الأولى -بمعنى تحول العصا إلى جِنِّي- لم يكن ثمة حكمةٌ وجدوى، أما حِكْمَةُ انْقِلَابِهَا حية وَقْتَ مُنَاجَاتِهِ فهي تَأْنِيسُ نبي الله موسى بِهَذَا الْمُعْجِزِ الْهَائِلِ؛ حَتَّى يُلْقِيَهَا لِفِرْعَوْنَ، فَلَا يَلْحَقُهُ ذُعْرٌ مِنْهَا فِي ذَلِكَ الْوَقْتِ، إِذْ قَدْ جَرَتْ لَهُ بِذَلِكَ عَادَةٌ، وكذلك تَدْرِيبُهُ فِي تَلَقِّي تَكَالِيفِ النُّبُوَّةِ وَمَشَاقِّ الرِّسَالَةِ، ثُمَّ أَمَرَهُ -تَعَالَى- بِالْإِقْدَامِ عَلَى أَخْذِهَا، وَنَهَاهُ عَنْ أَنْ يَخَافَ مِنْهَا، وَذَلِكَ حِينَ وَلَّى مُدْبِرًا وَلَمْ يُعَقِّبْ.(٤)

---

(١) ينظر: معاني القرآن وإعرابه ٨٨/٤، والغريبين في القرآن والحديث ٣٧٩/١، والمحكم والمحيط الأعظم ٩٦/٢ (ع ث ب)، ومعالم التنزيل في تفسير القرآن ٢٠٦/٦، والمحرر الوجيز ٢٥١/٤، واللسان ٢٣٦/١ (ب ع ث).

(٢) سورة طه: الآيات: ١٩، ٢٠، ٢١ .

(٣) جامع البيان ٢٩٥/١٨، بتصرف.

(٤) البحر المحيط ٣٢٣/٧، بتصرف.

هنا رسخ القول بأن حمْل "الجان" على معناه الظاهر -والد الجن- ممتنع مردود، حيث خلا من برهان، وأن المعنى المتسق أن يكون بمعنى الحية الصغيرة، بالإضافة إلى أنه يتناسب مع سحر سحرة فرعون، قال الله -تعالى-: ﴿قَالَ بَلْ أَلْقُوا فَإِذَا حِبَالُهُمْ وَعِصِيُّهُمْ يُخَيَّلُ إِلَيْهِ مِنْ سِحْرِهِمْ أَنَّهَا تَسْعَى﴾[1].

وينبثق عن هذه الدلالة إشكال، هو: كيف يُجمع بين الدلالتين في قول الله -تعالى-: ﴿فَلَمَّا رَآهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَانٌّ﴾ -والجان: الحية الصغيرة- وقولِه -تعالى-: ﴿فَأَلْقَى عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ ثُعْبَانٌ مُبِينٌ﴾[2] والثعبانُ -كما تبين سلفًا- يُطلق على الذكر الضخم الطويلَ منَ الحيات؟ الجواب من أربعة وجوه:

الأول- أن التعبير بـ"الجانّ" كان عن أول حالها، ثم لا تزال تزيد وتربو حتى صارت ثعبانًا عظيمًا.[3]

الثاني- وفَّق بعضهم بين الموضعين بأن العصا كانت في خلقها وصورتها ثعبانًا عظيمًا، وكالحيَّة الصغيرة في خفتها وتوقدها وتلويها.[4] فإنها شُبهت -إذ ذاك- بالحية الصغيرة في سرعة الاضطراب؛ لأن الصغار أكثر حركة من الكبار.[5]

الثالث- تأول بعض المفسرين "الجانّ" بالحية العظيمة.[6] وذلك جريًا على قول بعض اللغويين بأن "الجان" ضرب من الحيات، بلا قيد بحجم، بحيث يشمل الصغير والكبير.[7]

---

(١) سورة طه: الآية ٦٦ .
(٢) سورة الأعراف: الآية ١٠٧، وسورة الشعراء: الآية ٣٢ .
(٣) التَّفْسِيرُ البَسِيْط ١٧١/١٧، بتصرف، وينظر: الجامع لأحكام القرآن ١٦٠/١٣، والبحر المحيط ٣٢٣/٧ .
(٤) الغريبين في القرآن والحديث ٣٧٩/١ بتصرف، وينظر: المحكم والمحيط الأعظم ٩٦/٢ (ع ث ب)، ومجمع بحار الأنوار في غرائب التنزيل ولطائف الأخبار، لجمال الدين الهندي الفَتَّنِي ٤٠٣/١ .
(٥) المحرر الوجيز ٢٥١/٤، بتصرف.
(٦) ينظر: جامع البيان ٤٣٠/١٩، وتفسير القرآن العظيم، لابن كثير ١٨٠/٦.
(٧) ينظر: معجم ديوان الأدب ٥٩/٣، وشمس العلوم ٩٤٠/٢ (جن).

الرابع- أن الآيتين تحكيان حدثين وقعا في زمانين مختلفين، وذلك أن الحدث الأول -الذي تحولت فيه العصا إلى "جان" -حية صغيرة- كانت عند جبل الطور بعد أن قتل سيدُنا موسى القبطيَّ، وتوجه إلى مدين، وعند نزوله الطورَ وقع هذا الحدث-ولم يكن وقتئذ قد نُبِّئ- فالله -تعالى- يقول في ذلك: ﴿فَلَمَّا قَضَى مُوسَى الْأَجَلَ وَسَارَ بِأَهْلِهِ آنَسَ مِنْ جَانِبِ الطُّورِ نَارًا قَالَ لِأَهْلِهِ امْكُثُوا إِنِّي آنَسْتُ نَارًا لَعَلِّي آتِيكُمْ مِنْهَا بِخَبَرٍ أَوْ جَذْوَةٍ مِنَ النَّارِ لَعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ. فَلَمَّا أَتَاهَا نُودِيَ مِنْ شَاطِئِ الْوَادِ الْأَيْمَنِ فِي الْبُقْعَةِ الْمُبَارَكَةِ مِنَ الشَّجَرَةِ أَنْ يَا مُوسَى إِنِّي أَنَا اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ. وَأَنْ أَلْقِ عَصَاكَ فَلَمَّا رَآهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَانٌّ وَلَّى مُدْبِرًا وَلَمْ يُعَقِّبْ يَا مُوسَى أَقْبِلْ وَلَا تَخَفْ إِنَّكَ مِنَ الْآمِنِينَ﴾[1] أما الآية الثانية فتحكي حَدثًا غيره، وذلك حين أرسَل الله نبيهَ موسَى -عليه الصلاة والسلام- إلى فرعون يدعوه إلى الإيمان بالله، مؤيدًا بمعجزات منها تحول العصا إلى ثعبان عظيم، حيث قال الله -تعالى-: ﴿قَالَ فِرْعَوْنُ وَمَا رَبُّ الْعَالَمِينَ. قَالَ رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا إِنْ كُنْتُمْ مُوقِنِينَ. قَالَ لِمَنْ حَوْلَهُ أَلَا تَسْتَمِعُونَ. قَالَ رَبُّكُمْ وَرَبُّ آبَائِكُمُ الْأَوَّلِينَ. قَالَ إِنَّ رَسُولَكُمُ الَّذِي أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ. قَالَ رَبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَمَا بَيْنَهُمَا إِنْ كُنْتُمْ تَعْقِلُونَ. قَالَ لَئِنِ اتَّخَذْتَ إِلَهًا غَيْرِي لَأَجْعَلَنَّكَ مِنَ الْمَسْجُونِينَ. قَالَ أَوَلَوْ جِئْتُكَ بِشَيْءٍ مُبِينٍ. قَالَ فَأْتِ بِهِ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ. فَأَلْقَى عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ ثُعْبَانٌ مُبِينٌ﴾[2].

ولا يلزم هنا اتحاد الصورة التي تحولت عنها العصا -وإن اتحد الجنس- للمفارقة الزمانية، وانفكاك الغاية من هاتين المعجزتين، فالأولى كانت تثبيتًا لسيدنا موسى حتى يألفَها وتزولَ عنه فجأتها عند لقياه فرعونَ، ومَعْلَمًا من معالم نبوته -عليه الصلاة والسلام- والثانية وقعت تحديًا لفرعون -الذي ما ادعى غيره الألوهية- ولِيحادَّ بها مهرةَ السحرة، وإرهابًا لفرعون، وظهيرًا لنبي الله موسى -عليه الصلاة والسلام- ولا ريب في أن تحول العصا إلى الحية الصغيرة يناسب الحدث الأول، وتحولَها إلى ثعبان جسيم للثاني أنسب.

(١) سورة القصص: الآيات: ٢٩، ٣٠، ٣١.
(٢) سورة الشعراء: الآيات: من ٢٣ إلى ٣٢.

"وعلى كل قول فإن الله خلق في العصا حياة وغير أوصافها وأعراضها؛ فصارت حية"[1] سواء أكانت صغيرة أم كبيرة.

وعودًا على بدء أقول: لا تتساوق الدلالة اللغوية الأولى -الجان: بمعنى الجني- ومرادَ الآية، ولا ضير مِن جعلها حيةً صغيرة أو ثعبانًا عظيمًا؛ فكلا الوجهين حسن، وأحسنهما الأول؛ لظهور الدلائل المسرودة قبلُ.

❁❁❁❁❁

(١) المحرر الوجيز ٤/٢٥١.

المطلب الثاني ـ عن غير أولي العزم

أولاً ـ نبي الله شعيب ـعليه الصلاة والسلام

لَتَعُودُنَّ

قال الله -تعالى-: ﴿قَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا مِنْ قَوْمِهِ لَنُخْرِجَنَّكَ يَا شُعَيْبُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَكَ مِنْ قَرْيَتِنَا أَوْ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنَا قَالَ أَوَلَوْ كُنَّا كَارِهِينَ﴾(١).

المعنى اللغوي:

يستعمل الفعل "عَادَ" عند العرب في معنيين:

الأول- رَجَعَ، فـ"تقول: عَادَ الشَّيءُ يَعُود عَوْداً ومَعَاداً، أَيْ: رَجع"(٢) فـ"العَوْدُ: الرُّجوعُ"(٣)، ويقال منه: المُعاودَةُ: الرجوع إلى الأمر الأوَّل. يقال: الشجاعُ مُعاودٌ؛ لأنه لا يملُّ المِراس. وعاوَدَتْهُ الحمَّى. وعاوَدَهُ بالمسألة، أي: سأله مرة بعد أخرى. وتَعاوَدَ القومُ في الحرب وغيرِها، إذا عادَ كلُّ فريق إلى صاحبه. والعُوَادَةُ بالضم: ما أعِيدَ من الطعام بعد ما أُكِل منه مرَّةً.(٤) "والعادَةُ: الدَّيْدَان(٥) يُعادُ إِلَيْهِ"(٦).

"وَاللَّهُ - تَعَالَى - الْمُبْدِئُ الْمُعِيدُ، وَذَلِكَ أَنَّهُ أَبْدَأَ الْخَلْقَ، ثُمَّ يُعِيدُهُمْ. وَتَقُولُ: رَأَيْتُ فُلَانًا مَا يُبْدِئُ وَمَا يُعِيدُ، أَيْ: مَا يَتَكَلَّمُ بِبَادِئَةٍ وَلَا عَائِدَةٍ. قَالَ عَبِيد:

---

(١) سورة الأعراف: الآية ٨٨ .
ثَمِ نظير آخر لهذا الشاهد، في سورة إبراهيم: من الآية ١٣، في قوله -تعالى-: ﴿وَقَالَ الذِينَ كَفَرُوا لِرُسُلِهِمْ لَنُخْرِجَنَّكُمْ مِنْ أَرْضِنَا أَوْ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنَا﴾، تتفق مع هذا الشَّاهد في الدلالة، وَلذا أغنتَ آية الأعرافَ عن إعادة دراستها.
(٢) النهاية في غريب الحديث والأثر ٣١٦/٣، وينظر: جمهرة اللغة ٦٦٦/٢ (د ع و)، والصحاح ٥١٣/٢ (ع و د).
(٣) القاموس المحيط ص٣٠٢ (ع و د)، وتاج العروس ٤٣٢/٨ (ع و د).
(٤) الصحاح ٥١٤/٢ (ع و د)، بتصرف.
(٥) الدَيْدَنُ: الدَّأْبُ والعادة. الصحاح ٢١١٢/٥ (د د ن).
(٦) المحكم والمحيط الأعظم ٣٢١/٢ (ع و د).

أَقْفَرَ مِنْ أَهْلِهِ عَبِيدُ... فَالْيَوْمَ لَا يُبْدِي وَلَا يُعِيدُ[1]"[2].

و"العَوْدُ: ثَانِي البدء قَالَ:

بَدَأْتُمْ فَأَحْسَنْتم فأثْنَيْتُ جاهِداً فَإِن عُدْتُمُ أَثْنَيْتُ والعَوْدُ أحمَدُ[3]"[4].

الثاني- "صار"[5]. وقد ألحقها بعض النحاة بـ"كان" الناسخة، وجعلوها بمعنى "صار"[6]. ومن شواهد هذا الاستعمال "حَدِيثُ مُعاذ، قَالَ لَهُ النَّبِيُّ -ﷺ-: أعُدْتَ فَتَّانًا يَا مُعَاذُ؟.[7] أَيْ: صِرْتَ"[8]. "يقال: عَادَ فلانٌ يَفعَل كذا، أي: صَارَ يَتعاطاه. ومن هذا قوله: ﴿حَتَّى عَادَ كَالْعُرْجُونِ الْقَدِيمِ﴾[9] أي: صَار كالعُرجُون"[10] وعلى هذا المعنى ورد قول الشاعر:

فَصَارَ مُضِلِّي مَنْ هُدِيْتُ بِرُشْدِهِ فَلِلَّهِ مُغْوٍ عَادَ بِالْرُشْدِ آمِراً[11].[12]

---

(١) البيت من الرجز، وهو لعَبِيد بن الأبرص، في ديوانه ص ٥٢ .
(٢) مقاييس اللغة ١٨١/٤ (ع و د).
(٣) البيت من البيت من الطويل، ورد منسوبًا إلى عِمَارة بن عَقِيل، في: التذكرة الحمدونية، لبهاء الدين البغدادي ٨٧/٤، والحماسة البصرية، لعلي بن أبي الفرج البصري ١٨٢/١، والدر الفريد وبيت القصيد، لمحمد بن أيدمر المستعصمي ١٧٢/٥.
(٤) المحكم والمحيط الأعظم ٣٢٠/٢ (ع و د)، وتاج العروس ٤٣٤/٨ (ع و د).
(٥) ينظر: النهاية في غريب الحديث والأثر ٣١٦/٣.
(٦) ينظر: شرح المفصل، لابن يعيش ٣٣٧/٤، والكافية في علم النحو، لابن الحاجب ص٤٧، وارتشاف الضرب من لسان العرب، لأبي حيان ١١٦٣/٣.
(٧) المسند للشاشي ٢٩٤/٣ برقم (١٤٠١).
(٨) النهاية في غريب الحديث والأثر ٣١٦/٣، وينظر: غريب الحديث، للخطابي ١١١/١، واللسان ٣/ ٣١٧ (ع و د).
(٩) سورة يس: من الآية ٣٩ .
(١٠) غريب الحديث، للخطابي ١١١/١، وينظر: الإبانة في اللغة العربية ١٨٤/١.
(١١) البيت من الطويل، وقد نسب إلى خنافر بن التوأم الحميري، في: زهر الأكم في الأمثال والحكم، لنور الدين اليوسي ١١٩/٣، وبلا نسبة في: الأمالي، لأبي علي القالي ١٣٥/١، و التذييل والتكميل في شرح كتاب التسهيل، لأبي حيان الأندلسي ١٩٠/٤.
(١٢) ينظر: تمهيد القواعد بشرح تسهيل الفوائد، لناظر الجيش ١١٠٢/٣، وهمع الهوامع في شرح جمع الجوامع، للسيوطي ٤١٣/١.

الدراسة:

جرى الخطاب في قوله -تعالى-: ﴿أَوْ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنَا﴾ على لسان الملأ المستكبرين من قوم سيدنا شعيب، موجَّهًا إلى شعيب ومَنْ آمن معه، ومن هنا برز إشكال: وذلك أنه لمَّا كان العَوْد في اللغة -على معناه الأشهر- يقتضي الرجوع إلى الشيء المتروك أوهم ظاهرُه أن نبي الله شعيبًا -عليه الصلاة والسلام- كان على ملة قومه، حتى إن فخر الدين الرازي ذكر هذا المعنى اللغوي الممتنع، فقال: "لَا يَبْعُدُ أَنْ يُقَالَ: إِنَّ شُعَيْبًا كَانَ عَلَى شَرِيعَتِهِمْ، ثُمَّ إِنَّهُ -تَعَالَى- نَسَخَ تِلْكَ الشَّرِيعَةِ بِالْوَحْيِ الَّذِي أَوْحَاهُ إِلَيْهِ"(١). ويستلزم هذا المعنى الفاسد أن يكون مراد الآية: "لترجعَنَّ أنت وهم في ديننا وما نحن عليه"(٢).

وربما أورده متأثرًا بظاهر قول الله -تعالى- على لسان سيدنا شعيب: ﴿قَدِ افْتَرَيْنَا عَلَى اللَّهِ كَذِبًا إِنْ عُدْنَا فِي مِلَّتِكُمْ بَعْدَ إِذْ نَجَّانَا اللَّهُ مِنْهَا﴾(٣) إذ ظاهر معناها: قال شعيبَ لقومَهَ -إذ دَعَوْهَ إلى العَوْدِ إلى ملتهم، والدخول فيها، وتوعَّدوه بطرده ومَنْ تبعه من قريتهم إن لم يفعل ذلك هو وهم-: قد اختلقنا على الله كذبًا، إن نحن عُدْنا في ملتكم، فرجعنا فيها بعد إذ أنقذنا الله منها.(٤)

وفساد حمل "العَوْد" على معنى الرجوع بيِّن؛ إذ إن شعيبًا -عليه الصلاة والسلام- لم يكن في ملتهم قط؛ لأن الأنبياء لا يجوز عليهم الكفر مطلقاً.(٥) بل إنهم -عليهم الصلاة والسلام- معصومون عن الصغائر المنفرة، فضلًا عن الكبائر، فضلًا عن الكفر.(٦)

ولهذا هُرِع جمهورُ المفسرين واللغويين يلتمسون في "العَوْد" دلالة تليق بنبي الله شعيب -عليه الصلاة والسلام- ففسروها على هذين الوجهين:

---

(١) مفاتيح الغيب ١٤/ ٣١٦.
(٢) جامع البيان ٥٦١/١٢ .
(٣) سورة الأعراف: من الآية ٨٩ .
(٤) جامع البيان ٥٦٢/١٢، بتصرف.
(٥) أنوار التنزيل وأسرار التأويل ٢٤/٣، بتصرف.
(٦) الكشاف ١٢٩/٢، بتصرف.

الأول- أن يُحْمَلَ "العَوْدُ" على معناه اللغوي الثاني؛ ليكون بمعنى الصيرورة.(١) والمعنى -حينئذ-: أو "لَتَصِيرُنَّ إِلَى مِلَّتِنَا"(٢)، ويكون معنى ﴿إِنْ عُدْنَا فِي مِلَّتِكُمْ﴾: "إِنْ صِرْنَا فِي مِلَّتِكُمْ"(٣) وعلى هذا المعنى يدل "العَوْد" على معنَى الابتداء، لا معنى الرجوع إلى الكفر، كما يقال: قد عاد عليَّ من فلان مكروه، أي: قد لحقني منه ذلك، وإن لم يكن سبق منه مكروه.(٤) ولا تلبيس على هذا التأويل، وإليه ذهب جمهرة العلماء(٥).

الثاني- خرجه بعض المفسرين واللغويين على التغليب، بحيث يكون المعنى "أن أتباع شعيب كانوا قبل دخولهم في دينه على الكفر موافقين لقومهم، فخاطبوا شعيبًا بخطاب أتباعه وغلَّبوا خطابهم على خطابه؛ لكثرتهم وانفراده"(٦). فهو داخل في طلب قومه الرجوعَ إلى ملتهم ضمنًا لا عقيدة.

وعلى هذا التخريج يبقى الْإِشْكَالُ فِي قَوْلِ سيدنا شُعَيْبٍ -عليه الصلاة والسلام-: ﴿إِنْ عُدْنَا فِي مِلَّتِكُمْ﴾، وَوَجْهُهُ أَنَّهُ أَجْرَاهُ عَلَى الْمُشَاكَلَةِ وَالتَّغْلِيبِ.(٧). أما قول سيدنا شعيب -عليه الصلاة والسلام-: ﴿بَعْدَ إِذْ نَجَّانَا اللَّهُ

---

(١) ينظر: الغريبين في القرآن والحديث ١٣٤٠/٤، والكشاف ٥٤٤/٢، وأنوار التنزيل وأسرار التأويل١٩٥/٣.
(٢) تفسير القرآن، للسمعاني ١٩٨/٢، والغريبين في القرآن والحديث ١٣٤٠/٤، وزاد المسير ١٣٨/٢، وتاج العروس ٤٣٢/٨ (ع و د).
(٣) معالم التنزيل في تفسير القرآن ٢٥٨/٣ .
(٤) زاد المسير ١٣٨/٢، بتصرف، وينظر: التفسير البسيط ٢٣١/٩.
(٥) ينظر: تفسير القرآن، للسمعاني ١٩٨/٢، وزاد المسير ١٣٨/٢، ومفاتيح الغيب ٣١٦/١٤، وأنوار التنزيل وأسرار التأويل ١٩٥/٣، وبصائر ذوي التمييز ١٠٨/٤، وتاج العروس ٤٣٢/٨ (ع و د).
(٦) التَّفْسِير البَسِيْط ٢٣١/٩، وينظر: الكشاف ١٢٩/٢، وزاد المسير ١٣٨/٢، والكليات ص٢٨١.
(٧) التحرير والتنوير ٧/٩، بتصرف.

مِنْهَا﴾، فلا يوهم أنه كان في كفر؛ لأنه لا يلزم من التنجية أن تكون بعد الوقوع فَي المكروه، ألا ترى إلى قوله: ﴿فَأَنجَيْنَاهُ وَأَهْلَهُ﴾[1] وأمثالِه؟.[2]

وبهذا يتأكد امتناع المعنى الظاهر لـ"العَوْد" -بمعنى الرجوع- وينتفي أن يكون سيدنا شعيب -عليه الصلاة والسلام- على ملة قومه، كما أوهم المعنى الظاهر.

❁❁❁❁❁

(١) سورة الأعراف: من الآية ٨٣.
(٢) عِنَايةُ القَاضِي وكِفَايةُ الرَّاضِي عَلَى تفْسيرِ البَيضَاوي ١٨٩/٤، وروح المعاني ٤/٥، بتصرف فيهما.

ثانيًا- نبي الله يونس - عليه الصلاة والسلام

نَقْدر

قال الله -تعالى-: ﴿وَذَا النُّونِ إِذْ ذَهَبَ مُغَاضِبًا فَظَنَّ أَنْ لَنْ نَقْدِرَ عَلَيْهِ فَنَادَى فِي الظُّلُمَاتِ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ﴾(١).

المعنى اللغوي:

يأتي الفعل "قَدَر" عند أهل اللغة متعدد المعاني، ومن معانيه:

الأول- القوة، وهو مشتق من القدرة.(٢) يقال: قَدَرَ عَلَى الشَّيْءِ قُدْرَةً وقُدْرَانًا أَيْضًا بِضَمِّ الْقَافِ، وَقَدِرَ يَقْدَرُ قُدْرَةً لُغَةٌ فِيهِ، كَعَلِمَ يَعْلَمُ.(٣) "وَيُقَالُ: مَا لِي عَلَيْكَ مَقْدُرَة ومَقْدَرَة ومَقْدِرَة، أَي: قُدْرَة. وَفِي حَدِيثِ عُثْمَانَ -رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ-: "إِنَّ الذَّكاة فِي الحَلْقِ واللَّبَّة(٤) لِمَنْ قَدَرَ"(٥). أَي: لِمَنْ أَمكنه الذبْحُ فِيهِمَا"(٦)، "ومنه قولهم: المَقْدُرَةُ تُذْهِبُ الحَفِيظَةَ."(٧). "والاقتدار على الشيء: القدرة عليه"(٨).

الثاني- التضييق، تقول: قَدَرَ اللَّهُ الرِّزْقَ يَقْدِرُهُ وَيَقْدُرُهُ: ضَيَّقَهُ، ومنه قوله -تعالى-: ﴿اللَّهُ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَيَقْدِرُ لَهُ﴾(٩).(١٠) ومنه قَوله: ﴿وَمَن

---

(١) سورة الأنبياء: الآية ٨٧.
(٢) ينظر: الصحاح ٧٨٧/٢ (ر ق د)، والقاموس المحيط ص٤٦٠ (ق د ر).
(٣) مختار الصحاح ص١٩٣ (ق د ر)، بتصرف.
(٤) اللّبّة: موضع القلادة من الصدر، وهي المَنْحرَ من الدواب. شمس العلوم ٢٩٥٢/٩.
(٥) ورد برواية: "الذَّكَاةُ فِي الْحَلْقِ، وَاللَّبَّةُ لِمَنْ قَدَرَ"، وذلك في: المصنف، لعبد الرزاق الصنعاني ٤٩٤/٤ برقم (٨٦١٤).
(٦) اللسان ٧٦/٥ (ق د ر).
(٧) الصحاح ٧٨٧/٢ (ق د ر)، واللسان ٧٦/٥ (ق د ر).
هذا مثل يضرب لمن قدر وعفا، معناه: أن القدرة تذهب الغضب. ينظر: مجمع الأمثال، للنيسابوري ١٤/١
(٨) المرجعان السابقان: الموضعان أنفسهما.
(٩) سورة العنكبوت: من الآية ٦٢ .
(١٠) ينظر: المصباح المنير ٤٩٢/٢ (ق د ر).

قُدِرَ عَلَيْهِ﴾[1] أَي: ضُيِّق عَلَيْهِ، وَكَذَلِكَ قَوْله: ﴿وَأَمَّآ إِذَا مَا ٱبْتَلَاهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُۥ فَيَقُولُ رَبِّىٓ أَهَٰنَنِ﴾[2]، أَي: ضَيَّق"[3]. "وقَدَرَ عَلَى عِيَالِهِ قَدْراً: مِثْل قَتَرَ"[4].

الثالث- مأخوذ من القَدر -بفتح الدال وسكونها[5]- و"القَدَرُ: القضاء الموفق، يقال: قَدَّره الله تقديراً. وإذا وافق الشيءُ شيئاً قيل: جاء على قَدَرِه."[6] وعند ابن سيده: "الْقَدَر: الْقَضَاء وَالْحكم"[7]، "وَهُوَ مَا يُقَدِّره اللَّه -عَزَّ وَجَلَّ- مِنْ الْقَضَاءِ، وَيَحْكُمُ بِهِ مِنَ الأُمور. قَالَ اللَّهُ -عَزَّ وَجَلَّ-: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ فِى لَيْلَةِ ٱلْقَدْرِ﴾[8] أَي: الحُكْم، كَمَا قَالَ -تَعَالَى-: ﴿فِيهَا يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ﴾[9]، وأَنشدَ الأَخفش لهُدْبَة بنِ خَشْرَمٍ:

أَلا يَا لَقَوْمي للنوائبِ والقَدْرِ وللأَمْرِ يأْتي المَرءَ مِنْ حيثُ لَا يَدْري[10]"[11].

الدراسة:

أينما ورد الفعل "قَدِرَ" انصرف الذهن -بلا تذبذب- إلى معناه اللغوي الأبرز والأشهر، وهو الدلالة على القوة والمُكْنة والاستطاعة.

وقد ورد هذا الفعل في قوله -تعالى- على لسان نبيه يونس -عليه الصلاة والسلام-: ﴿فَظَنَّ أَن لَّن نَّقْدِرَ عَلَيْهِ﴾، ووهم بعض أهل المعاني؛ فحملوه

---

(١) سورة الطَّلَاق: من الآية ٧ .
(٢) سورة الْفجْر: من الآية ١٦ .
(٣) تهذيب اللغة ٣٩/٩ (ق د ر).
(٤) اللسان ٧٨/٥ (ق د ر)، ومختار الصحاح ص٢٤٨ (ق د ر).
(٥) ينظر: الصحاح ص١٩٣ (ق د ر)، والنهاية في غريب الحديث والأثر ٢٢/٤ .
(٦) العين ١١٢/٥ (ق د ر)، وينظر: تهذيب اللغة ٣٧/٩ (ق د ر)، واللسان ٧٤/٥ (ق د ر).
(٧) سورة القدر: الآية ١.
(٨) سورة الدخان: الآية ٤ .
(٩) سورة الْفجْر: من الآية ١٦.
(١٠) البيت من الطويل، وهو لهُدْبَة بن الخَشْرَم العذري، ص١٠١.
(١١) اللسان ٧٤/٥ (ق د ر)، وينظر: تاج العروس ٣٧٠/١٣ (ق د ر).

على ظاهر معناه اللغوي، حيث ذكر رواية "عن الحسن أنّه قال: معناه: فظنّ[١] أنّه يُعْجِز ربَّه؛ فلا يَقْدِر عليه"[٢]، وقال الأخفش: "أي: لن نَقْدِرَ عليه العقوبة؛ لأنه قد أذنب بتركه قومَه"[٣]، وذلك أن سيدنا يونس -عليه الصلاة والسلام- ظن هذا لمَّا بَعَثَهُ اللَّهُ إِلَى أَهْلِ قَرْيَةِ "نِينَوَى"، وَهِيَ قَرْيَةٌ مِنْ أَرْضِ الْمَوْصِلِ، فَدَعَاهُمْ إِلَى اللَّهِ، فَأَبَوْا عَلَيْهِ وَتَمَادَوْا عَلَى كُفْرِهِمْ، فَخَرَجَ مِنْ بَيْنِ أَظْهُرِهِمْ مُغَاضِبًا لَهُمْ.[٤] "حيث لم يفعله إلا غضبًا لله وأنفة لدينه وبغضًا للكفر وأهله"[٥]. "فأما أن يقال: إنه غاضبَ ربَّه، فهو عظيم، ولا يجوز القول بذلك في الأنبياء"[٦].

وتعد هذه الآية من المشكلات القرآنية؛ لأن حمل الفعل ﴿نَقْدِرَ﴾ على ظاهر معناه اللغوي يَقْتَضِي كَوْنَ سيدنا يونس -عليه الصلاة والسلام- شَاكًّا فِي قُدْرَةِ اللَّه -تَعَالَى- ومَنْ ظَنَّ عَجْزَ اللَّه -تَعَالَى- فَهُوَ كَافِرٌ، وَلَا خِلَافَ أَنَّهُ لَا يَجُوزُ نِسْبَةُ ذَلِكَ إِلَى آحَادِ الْمُؤْمِنِينَ، فَكَيْفَ إِلَى الْأَنْبِيَاءِ -عَلَيْهِمُ السَّلَامُ؟ فَإِذَنْ لَا بُدَّ فِيهِ مِنَ التَّأْوِيلِ.[٧] فالأخذ بظاهر المعنى اللغوي ههنا مردود مرغوب عنه؛ لأنه كفر.[٨].

وقد نجم عن هذا التفسير اللغوي الفاسد أن احتج القادحون في عصمة الأنبياء متشبثين بظاهر هذه الدلالة؛ حيث أجروا الفعل على ظاهر معناه اللغوي وقالوا: هو شك في قدرة الله.[٩]

---

(١) قال ابن عباس: أراد الظن بعينه. يعني: ليس الظن -هاهنا- بمعنى العلم، بل هو بمعنى الحسبان. التفسير البسيط ١٦١/١٥ .
(٢) الكشف والبيان عن تفسير القرآن، للثعلبي ٣٠٣/٦، وينظر: التَّفْسِيرُ البَسِيْط ١٦٤/١٥، ١٦٥ .
(٣) معاني القرآن ٤٤٩/٢.
(٤) تفسير القرآن العظيم، لابن كثير ٣٦٦/٥ بتصرف، وينظر: جامع البيان ٥١٢/١٨ .
(٥) الكشاف ١٣١/٣ .
(٦) الجامع لأحكام القرآن ٣٣١/١١ .
(٧) مفاتيح الغيب ١٨٠/٢٢ بتصرف، وينظر: اللباب في علوم الكتاب ٥٨٢/١٣ .
(٨) ينظر: الجامع لأحكام القرآن ٣٣١/١١ .
(٩) ينظر: غرائب القرآن ورغائب الفرقان ٤٦/٥ .

وقد أثار هذا الوجهُ الباطلُ حَمِيَّة[1] بعض اللغويين، فهَبُّوا -قبل أن يتأولوها بما يليق- ينافحون عن الآية، وينفون عنها ظاهر هذا الفعل، ويدحضون عنها الواهم والموهوم، من ذلك قول أبي حاتم السجستاني في الأخفش -صاحب التأويل الممتنع-: "وَلم يدر الأخفشُ مَا معنى ﴿نَقْدِرَ﴾، وَذهب إِلَى مَوضِع القُدرة، إِلَى معنى: فظنّ أَن يفوّتنا. وَلم يَعلَمْ كلامَ الْعَرَب، حتَّى قَالَ: إنَّ بعض الْمُفَسّرين قَالَ: أَرَادَ الاسْتِفْهَام: أفظَنَّ أَن لن نَقْدِرَ عَلَيْهِ؟ وَلَو علم أنّ معنى نَقْدِرُ: نُضيِّق، لم يَخْبِط هَذَا الخَبْط. وَلم يكن عَالمًا بِكَلَام الْعَرَب، وَكَانَ عَالمًا بِقِيَاس النحوَ."[2] ومنه قول أبي الهيثم (ت٢٧٦هـ) -معَرِّضًا-: "فأمَّا من اعْتقد أنّ يونُس ظنَّ أَن لن يَقْدِر اللهُ عَلَيْهِ فَهُوَ كَافِر؛ لأنّ من ظنّ ذَلِك غيرُ مُؤمن، وَيُونُس رسولٌ لَا يجوز ذَلِك الظنُّ عَلَيْهِ."[3]

ولم يبرح المفسرون واللغويون هذا الفعل ﴿نَقْدِرَ﴾ حتى فسروه بمعان أُخر تليق بمقام النبوة، وذلك على الوجهين الآتيين:

الأول- أن يكون من التضييق، وهو قول كثير من أئمة اللغة والتفسير[4]، أي: "ظن أنا لن نضيق عليه الحبس"[5] "بلزوم الإقامة مع قومه؛ ولذلك تركهم وذهب"[6]. و"عَلَى هَذَا التَّأْوِيلِ تَصِيرُ الْآيَةُ حُجَّةً لَنَا، وَذَلِكَ لِأَنَّ يُونُسَ -عَلَيْهِ السَّلَامُ- ظَنَّ أَنَّهُ مُخَيَّرٌ إِنْ شَاءَ أَقَامَ وَإِنْ شَاءَ خَرَجَ، وَأَنَّهُ -تَعَالَى- لَا يُضَيِّقُ عَلَيْهِ فِي اخْتِيَارِهِ، وَكَانَ فِي الْمَعْلُومِ أَنَّ الصَّلَاحَ فِي تَأَخُّرِ خُرُوجِهِ، وَهَذَا مِنَ اللَّه -تَعَالَى- بَيَانٌ لِمَا يَجْرِي مَجْرَى الْعُذْرِ لَهُ مِنْ حَيْثُ خَرَجَ، لَا عَلَى تَعَمُّدِ

(١) الحَمِيَّة: المحافظة على المحرم والدين من التهمة. كتاب التعريفات، للشريف الجرجاني ص٩٣ .
(٢) تهذيب اللغة ٣٩/٩ (ق د ر).
(٣) المرجع السابق: الموضع نفسه.
(٤) ينظر: تهذيب اللغة ٣٩/٩ (ق د ر)، وشمس العلوم ٥٤٠٤/٨، ومفاتيح الغيب ٣٥١/٥، واللباب في علوم الكتاب ٣٨٥/١٣ .
(٥) بحر العلوم ٤٣٩/٢، وينظر: تأويل مشكل القرآن، لابن قتيبة ص٢٣٣، والكشف والبيان عن تفسير القرآن ٣٠٢/٦، ومعالم التنزيل في تفسير القرآن ٣٥١/٥.
(٦) بيان المعاني، لعبدالقادر العاني ٣٢٨/٤.

الْمَعْصِيَةِ، لَكِنْ لِظَنِّهِ أَنَّ الْأَمْرَ فِي خُرُوجِهِ مُوَسَّعٌ يَجُوزُ أَنْ يُقَدِّمَ وَيُؤَخِّرَ، وَكَانَ الصَّلَاحُ خِلَافَ ذَلِكَ"(١).

الثاني- أن يكون من القَدَر، بمعنى: القضاء والحكم، ومعناه -إذ ذاك-: "ظن أن لن نُقَدِّرَ عَليه ما قَدَّرْنَاهُ من كونه في بطن الحوت. ويقْدِر بمعنى يُقَدِّر"(٢). وبصوغ أَبْيَن: "ظنّ أن الله لن يقضي عليه عقوبةً ولا بلاءً في غضبه الذي غضب على قومه، وفراقه إياهم"(٣).

"ويدل على صحة هذا قراءةُ عمر بن عبد العزيز والزهري ﴿فَظَنَّ أَنْ لَنْ نُقَدِّرَ عَلَيْهِ﴾ بالتشديد، وقرأ عبيد بن عمير وقتادة ﴿فَظَنَّ أَنْ لَنْ يُقَدَّرَ عَلَيْهِ﴾ بضم الياءَ والتشديد"(٤).

وكلا هذين الوجهين حريٌّ بالقبول، وأشبه بالآية، أما ظاهر معنى الفعل "نَقْدِر" -بمعنى القوة والقدرة- فقد تبين فساده، ولا يلتفت إليه، إذ بات قولًا هَمَلًا.

❁❁❁❁❁

(١) مفاتيح الغيب ١٨١/٢٢.
(٢) معاني القرآن وإعرابه ٤٠٢/٣، وينظر: معاني القرآن، للفراء ٢٠٩/٢، واللسان ٧٧/٥ (ق د ر).
(٣) جامع البيان ٥١٤/١٨، والدر المنثور في التفسير بالمأثور، للسيوطي ٦٦٦/٥، وينظر: تهذيب اللغة ٣٩/٩ (ق د ر).
(٤) التفسير البسيط ١٦٢/١٥، وينظر: الكشف والبيان عن تفسير القرآن ٣٠٢/٦، ومفاتيح الغيب ١٨٠/٢٢.

ثالثًا- نبي الله يوسف -عليه الصلاة والسلام

لَسَارِقُونَ

قال الله -تعالى-: ﴿ثُمَّ أَذَّنَ مُؤَذِّنٌ أَيَّتُهَا الْعِيرُ إِنَّكُمْ لَسَارِقُونَ﴾(١).

المعنى اللغوي:

"قال ابن عرفة: السَّارِقُ عِنْدَ الْعَرَبِ: مَنْ جَاءَ مُسْتَتِراً إِلَى حِرْزٍ، فَأَخَذَ مِنْهُ مَا لَيْسَ لَهُ،"(٢). و"السَّرِقَةُ: أخذ ما ليس له أخذُه في خفاء، وصار ذلك في الشّرع لتناول الشيء من موضع مخصوص، وقدر مخصوص"(٣).

"واسْتَرَقَ السمعَ، أي: استمعَ مستخفياً. ويقال: هو يُسارقُ النظرَ إليه، إذا اهتبل غفلته؛ لينظر إليه"(٤). "والمُسارَقة والاسْتِراق والتَّسَرُّق: اخْتِلَاسُ النَّظَرِ وَالسَّمْعِ؛ قَالَ الْقُطَامِيُّ:

بَخِلَتْ عَلَيْكَ، فَمَا يَجُودُ بِنَائِلٍ إِلَّا اخْتِلاس حَدِيثِها المُتَسَرَّقِ(٥)"(٦).

فمادة (س ر ق) تدُلُّ عَلَى أَخْذِ شَيْءٍ فِي خَفَاءٍ وَسِتْرٍ.(٧)

الدراسة:

تبين سلفًا أن السرقة أن يأخذ الإنسان ما ليس له خُفْيَةً؛ وقد وردت في قول الله -تعالى-: ﴿إِنَّكُمْ لَسَارِقُونَ﴾، ولما كانت السرقة كبيرة من الكبائر يُحَدُّ -شرعًا- مقترفُها؛ أيقظت هذه المسألة سؤلًا عند المفسرين، وكشف ظاهر معناها اللغوي عن شبهة، إذ قالوا: كيف جاز ليوسف -عليه

(١) سورة يوسف: من الآية ٧٠.
(٢) الغريبين في القرآن والحديث ٣/ ٨٨٩، واللسان ١٠/ ١٥٦ (س ر ق)، وتاج العروس ٢٥/ ٤٤٣ (س ر ق).
(٣) المفردات في غريب القرآن ص٤٠٨.
(٤) الصحاح ١٤٩٦/٤ (س ر ق)، وينظر: اللسان ١٥٥/١٠ (س ر ق).
(٥) البيت من الكامل، وهو للقطامي في ديوانه ص١٠١ .
(٦) المحكم والمحيط الأعظم ٢٣١/٦ (ق س ر)، وينظر: اللسان ١٥٦/١٠ (س ر ق).
(٧) ينظر: مقاييس اللغة ١٥٤/٣ (س ر ق).

الصلاة والسلام- أن يجعل السقاية في رحل أخيه، ثم يُسَرِّقَ قومًا أبرياء من السّرَقة، ويقول: ﴿أَيَّتُهَا الْعِيرُ إِنَّكُمْ لَسَارِقُونَ﴾؟.[1] وذلك أن نبي الله يوسف - عليه الصلاة والسلام- كما قضى لإخوتَه حاجتَهم ووفّاهم كيلَهم جعل الإناء الذي يكيلُ به الطعام في رَحْل أَخِيهِ بنيامين[2]، فخرجوا وحملوا الطعام، وذهبوا. فخرج يوسف على أثرهم حتى أدركهم، ثُمَّ نادى منادٍ بينهم، قال: أَيَّتُهَا الْعِيرُ إِنَّكُمْ لَسارِقُونَ إناء الملك، فانقطعت ظهورهم، وساء ظنهم.[3]

وتأثرًا بظاهر المعنى اللغوي لـ"السرقة" راح بعض المتأولين يفسرون الآية على غير وجهها بما لا يليق بسيدنا يوسف -عليه الصلاة والسلام- حتى ذكر بعضهم -في أوجه تأويله "السرقة"-: "أَن هَذِه هفوة من يُوسُف - عَلَيْهِ السَّلَام- وَقد قَالُوا: إِنَّه عُيِّر ثَلَاث عيرات: الأولى: حِين هَمَّ بِامْرَأَة الْعَزِيز إِلَى أَن رأى الْبُرْهَان، وَالثَّانِية: حِين قَالَ للساقي: ﴿اذْكُرْنِي عِنْدَ رَبِّكَ﴾[4]، وَالثَّالِثَة: هَذَا، وَهُوَ أَنه نسب إِخْوَته إِلَى السّرقَة."[5]

ودرءًا للشبهة فسر العلماء قوله: ﴿لَسَارِقُونَ﴾ على وجوه تليق بنبي الله يوسف -عليه الصلاة والسلام- فدونكها:

الأول- "أَنَّ هَذَا كَانَ حِيلَةً لِاجْتِمَاعِ شَمْلِهِ بِأَخِيهِ وَفَضْلِهِ عَنْهُ إِلَيْهِ، وَهُوَ ضَرَرٌ دَفَعَهُ بِأَقَلَّ مِنْهُ."[6] "وحكم هذا الكيد حكمُ الحيل الشرعية التي يتوصل بها إلى مصالح ومنافع دينية، كقوله -تعالى- لأيوب -عليه السلام-: ﴿وَخُذْ بِيَدِكَ ضِغْثًا﴾[7]؛ ليتخلص من جَلْدِها ولا يحنث، وكقول إبراهيم -عليه السلام-: هَي أختي؛ لتسلم من يد الكافر. وما الشرائع كلها إلا مصالح وطرق إلى التخلص

(١) جامع البيان ١٩٥/١٦، بتصرف، وينظر: تفسير القرآن، لأبي المظفر السمعاني ٤٩/٣، وزاد المسير ٤٥٧/٢ .
(٢) ينظر: جامع البيان ١٧٢/١٦ .
(٣) ينظر: بحر العلوم ٢٠٣/٢ .
(٤) سورة يوسف: من الآية ٤٢ .
(٥) تفسير القرآن، للسمعاني ٤٩/٣، وينظر: زاد المسير ٤٥٩/٢.
(٦) أحكام القرآن، لأبي بكر بن العربي ٦٣ .
(٧) سورة ص: من الآية ٤٤.

من الوقوع في المفاسد، وقد علم الله -تعالى- في هذه الحيلة التي لقنها يوسف مصالحَ عظيمةً؛ فجعلها سُلَّمًا وذريعةً إليها، فكانت حسنة جميلة، وانزاحت عنها وجوه القبح؛ لما ذكرنا."[1].

وَيُحسِّن هذا الوجهَ -كونه حيلةً ومكيدة، وأنْ ليس المراد المعنى الظاهر من تسريقهم- ثلاثة سياقات لغوية، هي:

١-قَوْلُهُ -تعالى-: ﴿كَذَلِكَ كِدْنَا لِيُوسُفَ مَا كَانَ لِيَأْخُذَ أَخَاهُ فِي دِينِ الْمَلِكِ﴾[2]"[3] "يعني: كذلك احتلنا لهَ، وألهمناه الحيلة."[4] وَتَبَصَّرْ دلالةَ اللَّامَ علَى التعليل في قوله -تعالى-: ﴿كِدْنَا لِيُوسُفَ﴾؛ لتفيد أن المكيدة والتحيل من الله له لا عليه؛ مما يدل على أن الكيد ههنا محمود العاقبة، وجالب للمصلحة.

٢-أن قوله -تعالى-: ﴿مَا كَانَ لِيَأْخُذَ أَخَاهُ فِي دِينِ الْمَلِكِ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ﴾، وقولَه: ﴿كِدْنَا﴾-بإسناد الكيد إلى الله-عز وجل- يَشعرانِ أنَ ما فعله سيدنا يوسف -عليهِ الصلاة والسلام- من مناداتهم بالتسريق كان بوحي من الله لا من نفسه؛ وعليه فلا تثريب عليه في ذلك.

٣-أن سيدنا يوسف -عليه الصلاة والسلام- ليصرف عنه الريب، ويعمي عليهم تحيله- فتش أوعيتهم ورحالهم، طالبًا بذلك صواعَ الملك، فبدأ في تفتيشه بأوعية إخوته من أبيه، فجعل يفتشها وعاءً وِعاءً قبل وعاء أخيه من أبيه وأمه، فإنه أخّر تفتيشه -عامدًا- ثم فتش آخرها وعاءَ أخيه، فاستخرج الصُّواع من وعاء أخيه.[5] وقد صور التنزيل العزيز هذا الموقف الدقيق في قوله -تعالى-: ﴿فَبَدَأَ بِأَوْعِيَتِهِمْ قَبْلَ وِعَاءِ أَخِيهِ ثُمَّ اسْتَخْرَجَهَا مِنْ وِعَاءِ أَخِيهِ﴾[6]،

(١) الكشاف ٤٩٢/٢ .
(٢) سورة يوسف: من الآية ٧٦ .
(٣) البحر المحيط ٣٠٣/٦ .
(٤) بحر العلوم ٢٠٤/٢ .
(٥) جامع البيان ١٨٤/١٦، بتصرف.
(٦) سورة يوسف: من الآية ٧٦ .

وتأمل توظيف حرف العطف "ثُمَّ" الدال على التراخي بين الأحداث؛ ليكشف عن مكثه الطويل في تفتيش أوعيتهم؛ مداراة لهذا الكيد المُحْكَم.

الثاني- أن معنى "قوله: ﴿إِنَّكُمْ لَسَارِقُونَ﴾: "إنكم لسارقون يوسفَ حين قطعتموه عن أبيه وطرحتموه في الجب"[(١)]. أو "أَنَّ الْقَوْمَ كَانُوا سَرَقُوهُ مِنْ أَبِيهِ وَبَاعُوهُ؛ فَاسْتَحَقُّوا هَذَا الِاسْمَ بِذَلِكَ الْفِعْلِ"[(٢)].

وعلى هذا القول يكون ظاهر معنى "السرقة" مرادًا، ويكون يوسف - عليه الصلاة والسلام- قد صدق؛ لأنهم سرقوه من أبيه وباعوه، ولم يقل - عليه السلام-: إنكم سرقتم الصواع.[(٣)]

وهذا الوجه لا يَسْلَمُ من ضعف؛ لأمرين:

١-أن السرقة -كما بينتُ- تعني -لغة-: أخذ الشيء خفية وتسللًا، أما إخوة سيدنا يوسف -عليه الصلاة والسلام- فقد اصطحبوه بعلم أبيهم وموافقته، ويشهد لهذا قولُه -تعالى-: ﴿قَالُوا يَا أَبَانَا مَا لَكَ لَا تَأْمَنَّا عَلَى يُوسُفَ وَإِنَّا لَهُ لَنَاصِحُونَ. أَرْسِلْهُ مَعَنَا غَدًا يَرْتَعْ وَيَلْعَبْ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾ [(٤)]، وقولُه: ﴿وَجَاءُوا أَبَاهُمْ عِشَاءً يَبْكُونَ. قَالُوا يَا أَبَانَا إِنَّا ذَهَبْنَا نَسْتَبِقُ وَتَرَكْنَا يُوسُفَ عِنْدَ مَتَاعِنَا فَأَكَلَهُ الذِّئْبُ وَمَا أَنْتَ بِمُؤْمِنٍ لَنَا وَلَوْ كُنَّا صَادِقِينَ﴾[(٥)].

٢-إطلاقُ السرقة على أَخذِ إخوةِ يوسفَ يوسفَ -عليه الصلاة والسلام- وطرحِه في الجُبِّ بعيدٌ قصدُه، وذلك بأن إخوةِ سيدنا يوسف -عليه الصلاة والسلام- سألوهم عن المسروق، فقالوا: ﴿مَاذَا تَفْقِدُونَ﴾؟[(٦)] فأجابوهم بقولهم:

---

(١) زاد المسير ٤٥٧/٢، وينظر: معاني القرآن وإعرابه ٣٩٧/٣، والتفسير البسيط ١٨١/١٢ .
(٢) محاسن التأويل، للقاسمي ٢٥٠/٦ .
(٣) ينظر: المرجع السابق: الموضع نفسه.
(٤) سورة يوسف: الآيتان: ١١، ١٢.
(٥) سورة يوسف: الآيتان: ١٦، ١٧.
(٦) سورة يوسف: من الآية ٧١.

﴿نَفْقِدُ صُوَاعَ الْمَلِكِ﴾، ولم يقولوا: سرَقتم يوسفَ قبل ذلك وطرحتموه في الجب – أو مَا يفيده.

الثالث– وُجِّهَ "على أن النداء بالتسريق كان بغير أمر يوسف ولا علمِه، فكان الكذب زائلًا عن نبي الله في الحالات كلها."[1] وعلى هذا التأويل تُحمل "السرقة" على معناها اللغوي المعروف.

وهذا الوجه –كذلك– عُلِم ضعفُه وبانَ بُعْدُه؛ وذلك لأن قول الله –تعالى–: ﴿فَلَمَّا جَهَّزَهُمْ بِجَهَازِهِمْ جَعَلَ السِّقَايَةَ فِي رَحْلِ أَخِيهِ﴾[2]، وقولَه: ﴿فَبَدَأَ بِأَوْعِيَتِهِمْ قَبْلَ وِعَاءِ أَخِيهِ ثُمَّ اسْتَخْرَجَهَا مِنْ وِعَاءِ أَخِيهِ﴾[3] تَرجَع الضمائر فيهما إلى سَيدنا يوسفَ –عليه الصلاة والسلام– فضمير الفاعل في قوله: ﴿جَهَّزَهُمْ﴾ وقوله: ﴿جَعَلَ﴾، والضمير المضاف إليه في قوله: ﴿أَخِيهِ﴾، وضمير الفاعل في قوله: ﴿فَبَدَأَ﴾، والضمير المضاف إليه في قوله: ﴿أَخِيهِ﴾، وضمير الفاعل في قوله: ﴿اسْتَخْرَجَهَا﴾، والمضاف إليه في قوله: ﴿أَخِيهِ﴾، مردها جميعًا إلى نبي الله يوسف –عليه الصلاة والسلام–[4] فهو الذي قَضَى حاجتهم ووفاهم كيلهم، ووضع إناء الملك في رحل أخيه، ثم بعد النداء بالتسريق فتش أوعيتَهم قبل وعاء أخيه واستخرج منه السقاية، فهل يُقبل بعد هذه الشواهد على الكيد البواح أن يؤذَّن بالتسريق بلا أمره وعلمه؟!.

وبعد، فقد تبين أن الوجهين الأخيرين بعيدان ولا يتسقان ومراد الآيات، وثبت أن الوجه الأول بأن السرقة هنا على غير ظاهرها اللغوي، غير أنها وُظفت في الآية ضربًا من ضروب الكيد المشروع؛ ليضم سيدنا يوسف –عليه

(١) التَّفْسِيرُ البَسِيْط ١٨١/١٢، وينظر: إعراب القرآن، للنحاس ٢٠٩/٢، أحكام القرآن، للرازي الجصاص ٣٩٠/٤، وتفسير القرآن، لأبي المظفر السمعاني ٤٩/٣.
(٢) سورة يوسف: من الآية ٧٠.
(٣) سورة يوسف: من الآية ٧٦.
(٤) ينظر: جامع البيان ١٧٢/١٦ : ٢٠٠ .

الصلاة والسلام- إليه أخاه من أبيه وأمه، دون إرادة التسريق. و"إِنَّ فِي الْمَعَارِيضِ لَمَنْدُوحَةً عَنِ الْكَذِبِ"[1]؛ ولذا قال أبو بكر بن العربي عن هذا التوجيه: هو التحقيق.[2] أي: الوجه الثابت الأحق بالقبول.

❁❁❁❁❁

(١) ورد موقوفًا على عمران بن حصين، في: مصنف ابن أبي شيبة ٢٨٢/٥ برقم (٢٦٠٩٦)، والسنن الكبرى للبيهقي ٣٣٦/١٠ برقم (٢٠٨٤٢).
(٢) أحكام القرآن ٦٣/٣، بتصرف.

المبحث الثاني- الحديث عن الغيبيات

توطئة:

تُعرف الغيبيات -أو ما يسمى بالسمعيات- بأنها: "مَا كَانَ طَرِيقُ الْعِلْمِ بِهِ السَّمْعَ الْوَارِدَ فِي الْكِتَابِ أَوِ السُّنَّةِ وَالْآثَارِ مِمَّا لَيْسَ لِلْعَقْلِ فِيهِ مَجَالٌ"[1] فكل ما يدرك بالوارد الصحيح ويقصر العقل عن إدراكه هو من الغيبيات.

وقد رصدت الفكرة مما امتنع حمله على ظاهر معناه مثالين من الغيبيات التي لا تدرك بالعقل، هما: الحديث عن تمتع أهل الجنة بشرب خمرها، وما كان يفعله الجن من استراقهم السمع، ثم مُنعوا، وإليك تحريرَ القول فيهما:

١- يَتَنَازَعُونَ

قال الله -تعالى-: ﴿يَتَنَازَعُونَ فِيهَا كَأْسًا لَّا لَغْوٌ فِيهَا وَلَا تَأْثِيمٌ﴾[2].

المعنى اللغوي:

التنازع: المنازعة في الخصومات ونحوها.[3] "والمُنازَعةُ فِي الخُصومةِ: مُجاذَبةُ الحُجَجِ فِيمَا يَتنازَعُ فِيهِ الخَصْمانِ. وَقَدْ نازَعَه مُنازَعةً ونِزاعاً: جاذَبه فِي الْخُصُومَةِ؛ قَالَ ابْنِ مُقْبِلٍ:

نازَعْتُ أَلْبابَها لُبِّي بمُقْتَصِرٍ مِنَ الأَحاديثِ، حَتَّى زِدْنَنِي لِينَا[4]

أَي: نازَعَ لُبِّي أَلْبابَهُنَّ"[5].

---

(١) لوامع الأنوار البهية وسواطع الأسرار الأثرية لشرح الدرة المضية في عقد الفرقة المرضية، لشمس الدين، السفاريني الحنبلي ٣/٢.
(٢) سورة الطور: الآية ٢٣ .
(٣) العين ٢٩٥/١ (ع ز ن)، والإبانة في اللغة العربية ٤٦١/٤، بتصرف فيهما.
(٤) البيت من البسيط، وهو لابن مقبل في ديوانه ص٢٣٣، برواية:
نَازْعْتُ ألبابَها لُبِّي بِمُخْتَزَنٍ مِنَ الأحاديث حتى ازدَدْنَ لي لِينَا
(٥) اللسان ٣٥١/٨ (ن ز ع).

ومنه قول اللّه -تعالى-: ﴿فَإِنْ تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ﴾(١). (٢) "وتنازَعَ القومُ: اخْتَصَمُوا. وَبَيْنَهُمْ نِزاعةٌ، أَي: خصَومةٌ فِي حَقٍّ"(٣).

"والتَّنازُعُ فِي الأَصْلِ: التَّجاذُبُ"(٤)، ومنه ما جاء في الْحَدِيثِ: أَنه ﷺ صلَّى يَوْمًا فَلَمَّا سلَّم مِنْ صَلَاتِهِ، قَالَ: "مَا لِي أُنازَعُ القرآنَ؟"(٥). أَي: أُجاذَبُ فِي قِرَاءَتِهِ؟ وَذَلِكَ أَن بَعْضَ المأْمومين جَهَرَ خَلْفه، فنازَعه قِراءتَه، فَشَغَلَهُ، فَنَهَاهُ عَنِ الْجَهْرِ بِالْقِرَاءَةِ فِي الصَّلَاةِ خَلْفَهُ.(٦) يقال: "نَازَعَهُ مُنَازَعَةً: جَاذَبَهُ فِي الْخُصُومَةِ"(٧).

وهذه المعاني جميعًا مردها إلى "القَلْع" فالعرب تقول: "نَزَعَ الشَّيْءَ مِنْ مَكَانِهِ: قَلَعَهُ مِنْ بَابِ ضَرَبَ. وَقَوْلُهُمْ: فُلَانٌ فِي النَّزْعِ، أَيْ: فِي قَلْعِ الْحَيَاةِ"(٨).

الدراسة:

تصور لنا الآية الكريمة مشهدًا من مشاهد التنعيم في جنات النعيم، مُوظِّفة الفعلَ ﴿يَتَنَازَعُونَ﴾ لنقل هذه الصورة الغيبية الماتعة، فتقول: ﴿يَتَنَازَعُونَ فِيهَا كَأْسًا﴾ وقد تبين في (المعني اللغوي) أن التنازع لا يكون إلا في خَصومة ومُشَارَّة، فهل يقع تنازع وتخاصم بين أهل الجنة، وهي دار تنعيم خالد والنزاعُ يسلب المرءَ راحة البال؟ وهل ينزغ بينهم نازع وهم يشربون خمرها لذيذة المذاق طيبة الريح؟ كيف يُقْبَل هذا والله -عز وجل- قد استل من صدورهم سخائمَ قلوبهم وضغائن نفوسهم، فقال -عنهم فيها-: ﴿وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِمْ مِنْ غِلٍّ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهِمُ الْأَنْهَارُ﴾(٩)، وقال: ﴿وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِمْ

(١) سورة النساء: من الآية ٥٩ .
(٢) شمس العلوم ودواء كلام العرب من الكلوم ٦٥٦٨/١٠، بتصرف.
(٣) اللسان ٣٥٢/٨ (ن ز ع).
(٤) تاج العروس ٢٤٧/٢٢ (ن ز ع).
(٥) الموطأ للإمام مالك ١١٨/٢ برقم (٢٨٦)، وسنن ابن ماجه ٢٧٦/١ برقم(٨٤٨).
(٦) اللسان ٣٥٢/٨ (ن ز ع)، بتصرف.
(٧) مختار الصحاح ص٣٠٨ (ن ز ع).
(٨) مختار الصحاح ص٣٠٨ (ن ز ع)، وينظر: القاموس المحيط ص٧٦٦ (ن ز ع).
(٩) سورة الأعراف: من الآية ٤٣ .

مِنْ غِلٍّ إِخْوَانًا عَلَى سُرُرٍ مُتَقَابِلِينَ﴾[1]؟! ثم بعد تصوير تلذذهم بشرب خمر الجنة شَفعَهُ بما ينفي أن يصيبهمَ ما يصيب المتنادمين من شربة خمر الدنيا من ذَرْب اللسان ولغط الكلام وسقط الحديث، فقال -جل شأنه-: ﴿لَا لَغْوٌ فِيهَا﴾.

إذا كان ذلك كذلك -وحيث "لا باطلَ في الجنة"[2]- فإن الفعل ﴿يَتَنَازَعُونَ﴾ ممتنع الظاهر؛ ومن ثم لا بد أن يُصْرَفَ "التنازع" ههنا عن وجهه المشهور، ولهذا أطبق جمهور المفسرين واللغويين على تأويله بما يتسق ووعدَ الله المؤمنين بتنعيمهم بما لا يخطر على قلب بشر، وذلك على قولين:

الأول- جعلوا التنازع في الآية بمعنى التعاطي والتداول والتناول، فقالوا: "معنى ﴿يَتَنَازَعُونَ﴾: يتعاطون فيها كأساً، يُتَناول هذا الكأس من يد هذا، وهذا من يد هذا"[3] ومن استعمال "التنازع" في "التعاطي" قول الأخطل:

نَازَعْتُهُ طَيِّبَ الرَّاح الشَّمول وقَدْ صَاحَ الدَّجاجُ وحَانَتْ وَقْعَةُ السَّاري[4].[5]

وإطلاق "التنازع" على "التعاطي" من المجاز.[6] ويتمخض عن هذه الدلالة المجازية سؤال، هو: قد تأكد امتناع المعنى الظاهر للتنازع، ودفع ذلك المفسرين واللغويين إلى تأويلها بـ"التعاطي" فلِمَ لَمْ تستعمل الآيةُ الفعلَ "يتعاطون" أو "يتداولون" بدلًا من "يتنازعون" دون اللجوء إلى المجاز؟.

الجواب: لعل التنزيل العزيز آثر استعمال "التنازع"؛ لأمرين:

١-لِلَّمح إلى أن هذا التعاطي وذاك التداول مصحوبان بكمال الرغبة وشدة الاشتياق، كما ينبئ عنه لفظ "التنازع".[7] وهاتيك لذة لا تدانيها لذة: أن تشتاق نفسك إلى شيء، فتجده بين يديك. والعرب تعبر عن شدة الشوق -الذي يكاد

(١) سورة الحجر: من الآية ٤٧ .
(٢) جامع البيان ٤٧٤/٢٢، وبحر العلوم ٣٥٣/٣ .
(٣) معاني القرآن وإعرابه للزجاج ٦٣/٥، وينظر: تهذيب اللغة ٨٤/٢ (ع ز ن)، والجامع لأحكام القرآن ٦٨/١٧، وتاج العروس ٢٤٧/٢٢ (ن ز ع).
(٤) البيت من البسيط، وهو للأخطل في ديوانه ١٤٢.
(٥) ينظر: جامع البيان ٤٧٤/٢٢، بتصرف، والبحر المحيط ٥٧٢/٩ .
(٦) ينظر: تاج العروس ٢٤٧/٢٢ (ن ز ع).
(٧) ينظر: إرشاد العقل السليم إلى مزايا القرآن الكريم ١٤٩/٨، والبحر المديد في تفسير القرآن المجيد، لابن عجيبة ٣٢٥/٧ .

يقتلع الجوانح- بالمنازعة والنزاع، من ذلك قولهم: نازَعَتْني نَفسِي إِلَى هَواهَا نِزَاعا: غالبتني.[١] "وَيُقَال لْلإِنْسَان إِذا هَوِيَ شَيْئًا ونازعته نَفسُه إِلَيْهِ: هُوَ يَنْزِع إِلَيْهِ نِزَاعاً"[٢].

٢-أن منازعة الكأس بمعنى معاطاتها، تعبير تؤثره العرب عن تداولها؛ إيماءً إلى شدة حرصهم عليها، كما يحرص المتنازعون على حَوْزِ المتنازَع عليه، وإفصاحًا عن شدة التذاذهم بها؛ لبلوغها الغاية في المذاق والإمتاع، مع المشاركة، وهي أيضًا متعة.[٣] وكذلك حال أهل الجنة.

وبهذين اجتمع لأهل الجنة الشوقُ والحرصُ ومنالُ المرغوب، وهذا من كمال التنعيم.

الثاني- فسروا التنازع بمعنى التجاذب،[٤] وهو أصل معناه اللغوي. وليصرفوا عن التجاذب شائبة الاختصام والمشادة قالوا: يكون "بتجاذب بعضهم إناءَ الخمر من بعض في شربها تجاذبَ ملاعبة لا تجاذبَ مخاصمة، وهو المؤمن وزوجاته وخدمه"[٥]، "إِذْ أَهْلُ الدُّنْيَا لَهُمْ فِي ذَلِكَ لَذَّةٌ، وَكَذَلِكَ فِي الْجَنَّةِ"[٦].

هذا، وكلا هذين التوجيهين مستلمح، وقد ثبت أن حمل التنازع على ظاهر معناه مردود.

❁❁❁❁❁

(١) المحكم والمحيط الأعظم ٥٢٥/١ (ع ز ن)، واللسان ٣٤٩/٨ (ن ز ع)، بتصرف فيهما.
(٢) التهذيب ٨٥/٢ (ع ز ن)، واللسان ٣٤٩/٨ (ن ز ع) .
(٣) ينظر: المعجم الاشتقاقي المؤصل لألفاظ القرآن الكريم، د. محمد حسن جبل ٤/ ٢١٧٨ .
(٤) ينظر: مفاتيح الغيب ٢١١/٢٨، والبحر المحيط ٥٧٢/٩، ومراح لبيد لكشف معنى القرآن المجيد، لمحمد بن عمر الجاوي ٤٥٩/٢، والتفسير المنير في العقيدة والشريعة والمنهج، د.وهبة بن مصطفى الزحيلي ٦٣/٢٧.
(٥) مراح لبيد لكشف معنى القرآن المجيد ٤٥٩/٢، وينظر: مفاتيح الغيب ٢١١/٢٨ .
(٦) البحر المحيط ت٧٤٥هـ ٥٧٢/٩ .

٢-لَمَسْنا

قال الله -تعالى-: ﴿وَأَنَّا لَمَسْنَا السَّمَاءَ فَوَجَدْنَاهَا مُلِئَتْ حَرَسًا شَدِيدًا وَشُهُبًا﴾[١].

المعنى اللغوي:

"اللَّمْسُ: طلب الشيء باليد من ههنا وهنا ومِنْ ثَمَّ"[٢]، "وإكافٌ مَلْمُوسُ الأحناء، أي: قد أُمِرَّ عليه اليَدُ. فإنْ كان فيه ارتفاعٌ أو أَوَدٌ نُحِتَ"[٣] "وَمِنْه قولُ لَبيد:

يَلْمَسُ الأَحْلَاسَ فِي مَنزِلِهِ بِيَدَيْهِ كاليهوديِّ المُصَلْ[٤]"[٥]

"وَفِي الحَدِيث: النَّهيُ عَن المُلامَسة، قَالَ أَبُو عُبَيد[٦]: المُلامَسة أَن يَقُول: إِذا لمَستَ ثوبي أَو لَمسْتُ ثَوْبَك فقد وَجَب البَيْع بِكَذَا وَكَذَا. وَيُقَال: هُوَ أَن يَلْمِسَ المتاعَ من وَراءِ الثّوب، وَلَا يَنظر إِلَيْهِ فَيَقَع البيعُ على ذَلِك، وَهَذَا كلّه غَرَر وَقد نُهيَ عَنهُ."[٧]

وقد اعتور "اللمسَ" تطورٌ دلالي، حيث اتسعت فيه الدلالة، قال ابن دريد: "واللّمْس أصله باليد؛ ليُعرف مَسُّ الشيء، ثم كثر ذلك في كلامهم حتى صار كل طالب ملتمساً."[٨] "والالتِماسُ: الطلبُ. والتَلَمُّسُ: التطلُّب مرّةً بعد أخرى"[٩] "وَمِنْهُ الْحَدِيثُ: "مَنْ سَلَكَ طَرِيقاً يَلْتَمِسُ فِيهِ عِلْماً"[١٠] أَيْ: يَطْلُبه،

(١) سورة الجن: الآية ٨ .
(٢) العين ٢٦٨/٧ (س ل م)، والتهذيب ١٢/ ٣١٦ (س ل م).
(٣) العين ٢٦٨/٧ (س ل م)، والتهذيب ١٢/ ٣١٦ (س ل م)، وينظر: التكملة والذيل والصلة، للصغاني ٤٢٨/٣ (ل م س).
(٤) البيت من الرمل، وهو للبيد بن ربيعة العامري، في ديوانه ص١٤٢ .
(٥) التهذيب ١٢/ ٣١٦ (س ل م).
(٦) ينظر: غريب الحديث ٢٩١/١ .
(٧) التهذيب ١٢/ ٣١٦ (س ل م)، وينظر: المحكم والمحيط الأعظم ٨/ ٥٢٠، (س ل م).
(٨) جمهرة اللغة ٤٨٠/١ (س ل م).
(٩) الصحاح ٩٧٥/٣ (ل م س)، واللسان ٦/ ٢٠٩ (ل م س).
(١٠) سنن ابن ماجه ٨١/١ برقم (٢٢٣)، وسنن الترمذي ٣٢٥/٤ برقم (٢٦٤٦).

فاسْتَعارَ لَهُ اللَّمْس. وَحَدِيثُ عَائِشَةَ: "فالْتَمَسْتُ عِقْدِي"[١]"[٢]. وقالوا -في ثلاثيه-: لَمَسَ الشَّيْءَ لَمْساً: كالْتَمَسَه، وَمِنْه قولُهُم: الْمِسْ لِي فُلانًا، وَهُوَ مَجَازٌ.[٣]

الدراسة:

فشا في الاستعمالات الحديثة إطلاق "لَمَسَ" الثلاثي على الجَسِّ باليد، واستعمالُ "التمسَ" في معنى الطلب، فإذا قالوا: لمستُ الشيءَ، عنوا: مسه باليد. وإذا قالوا: تقدمت بالتماس، أي: بطلب.

وقد ورد الثلاثي "لمس" في التنزيل العزيز، في قوله -تعالى- على لسان الجن-: ﴿وَأَنَّا لَمَسْنَا السَّمَاءَ﴾، ولا يستقيم ههنا حمله على ظاهر معناه، الدال على الجس باليد، وإذا تقصيت التفاسير تلتمس أوفق معانيه، ألفيت بعضهم يجريه على ظاهر معناه اللغوي، فيقول: "قوله: ﴿لَمَسْنَا السَّمَاءَ﴾: اللمس: طلب إدراك الملموس بحاسة اللمس"[٤]، بل منهم من نقل عن ابن عباس -رضي الله عنهما- قولًا بذلك، فقال: "قال ابن عباس: يريد: مَسِسْنا السماء"[٥] والعلماء يجعلون المس واللمس بمعنى واحد، فيقولون: "اللمس: إدراك بظاهر البشرة، كالمَسِّ"[٦] "والمَسُّ: مَسّك الشيءَ بِيَدَك"[٧]. فمراعاة ظاهر المعنى هنا يستلزم أن الجن لمسوا السماء الدنيا بأيديهم، وهذا المعنى ممتنع؛ لأن الله -عز وجل- رصد لهم شهبًا تحرقهم بمجرد شروعهم في صعودهم إلى السماء، ولا يستطيعون الوصول إليها ليلمسوها بأيديهم، ثم إن غايتهم من هذا الاقتراب استراق السمع؛ ليلقوه إلى الكهنة، لا جسُّها بأيديهم، إذ لا معنى

(١) صحيح البخاري ١٧٣/٣ برقم (٢٦٦١)، وصحيح مسلم ٢١٢٩/٤ برقم (٢٧٧٠).
(٢) النهاية في غريب الحديث والاثر ٢٧٠/٤، ٢٧١ (لمس)، واللسان ٢٠٩/٦ (ل م س).
(٣) تاج العروس ٤٨٨/١٦ (ل م س)، بتصرف، وينظر: أساس البلاغة ١٨٠/٢ (ل م س).
(٤) غرائب التفسير وعجائب التأويل، لبرهان الدين الكرماني ٢/ ١٢٦١ .
(٥) التفسير البسيط ٢٩٣/٢٢ .
(٦) المفردات في غريب القرآن ص٤٥٤ .
(٧) تهذيب اللغة ٢٢٦/١٢ (س س م).

للمس باليد ههنا؛ بل كانوا يرومون الاستماع لا اللمس؛ ولهذا قال أبو الحسن الواحدي -رادًّا هذا التوجيه-: "وليس من اللمس بالجارحة في شيء"(١).

ومن هنا جعل جمهور المفسرين واللغويين "اللمس" في الآية بمعنى الطلب، على سبيل المجاز، فقالوا -في تأويلها-: "طلبنا بلوغ السماء واستماع كلام أهلها."(٢) "على ما كان من عادتنا؛ لاستماع ما يُغوى به الإنسان"(٣) حيث "كَانَت الْجِنّ تسمع سمْعَ السَّمَاء، فَلَمَّا بعث الله مُحَمَّدًا -صلى الله عليه وسلم- حُرست السَّمَاء ومنعُوا ذَلِك، فتفقدت الْجِنّ ذَلِك من أَنْفسهَا"(٤) فوجدوها حرست بحفظة الملائكة، وبالنجوم التي ترجم الشياطين.(٥) و"هذا من آيات النبيّ ﷺ ومما حدث بعد مولده"(٦).

ثم إنهم تفاوتت عباراتهم في بيان كيفية طلبِ الجن خبرَ السماء وحديثَ الملائكة في أمر الخلق... فمنهم من فسره بالإتيان إلى السماء الدنيا، فقال: "صَعِدنا، وأتينا السماء؛ لاستراق السمع"(٧)، ومنهم من عبر عنه بالمعالجة -التي تدل على مزاولة الطلب مرة بعد مرة- فقال: "عالجنا غيبَ السماء، ورُمْنَا استراقه؛ فنلقيه إلى الكهنة"(٨). وبعضهم يقول: "حَاوَلْنَا الاستماع"(٩).

---

(١) التفسير البسيط ٢٢/٢٩٤.
(٢) الكشاف ٢/٦٢٤، وغرائب القرآن ورغائب الفرقان ٦/٣٧١، ومفاتيح الغيب ٣٠/٦٦٨، وينظر: المفردات في غريب القرآن ص٧٤٧، والبحر المحيط ١٠/٢٩٦.
(٣) نظم الدرر في تناسب الآيات والسور، للبقاعي ٢٠/٤٨٦ .
(٤) الدر المنثور ٨/٣٠٢ .
(٥) ينظر: جامع البيان ٢٣/٦٥٧ .
(٦) التفسير البسيط ١٢/٥٦٧.
(٧) بحر العلوم ٣/٥٠٥، وينظر: التفسير البسيط ٢٢/٢٩٣، وزاد المسير ٤/٣٤٨ .
(٨) التفسير البسيط ٢٢/٢٩٤، وزاد المسير ١/٤١١، وينظر: القاموس المحيط ص٥٧٣، وتاج العروس ١٦/٤٨٥ (ل م س).
(٩) معاني القرآن وإعرابه ٥/٢٣٤ .

وكلها عبارات مليحة صحيحة، توافق طَلِبة الآية ومبتغاها، غير أن المعنى الظاهر للّمس ممتنع ولا يستقيم عليه الكلام، وأن المعنى الأوجب أن يكون اللمس بمعنى الطلب، ليس غيرُ.

المبحث الثالث: الحديث عن الكافرين

١-فتنة

قال الله -تعالى-: ﴿وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ لِلَّهِ فَإِنِ انْتَهَوْا فَلَا عُدْوَانَ إِلَّا عَلَى الظَّالِمِينَ﴾[١].

المعنى اللغوي:

جِمَاعُ مَعْنى "الفِتْنَةِ" فِي كَلَام الْعَرَب الابْتَلاءُ والامْتِحَانُ. وَأَصلهَا مأخوذٌ من قَوْلك: فَتَنْتُ الفِضّةَ والذَّهَبَ، إذا أذبتهما بالنَّارِ؛ ليتميز الرَّدِيء من الجَيِّد.[٢] "وَمن هَذَا قَول الله -جلّ وعزّ-: ﴿يَوْمَ هُمْ عَلَى النَّارِ يُفْتَنُونَ﴾[٣]، أَي: يُحَرقون بالنَّار"[٤]

وينشعب عن هذا المعنى الجامع معانٍ فرعيةٌ كثيرة، منها:

الأول- الفِتَنُ: ما يَقَعُ بين الناس من الحروب.[٥]

الثاني- الابتلاء، ومنه قول الله -تعالى-: ﴿وَلَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ صَدَقُوا﴾[٦]، أَي: اخْتَبرنا وابْتَلَينا.[٧]

---

(١) سورة البقرة: الآية ١٩٣ .
لهذه الآية نظير في سورة الأنفال: من الآية ٣٩، في قوله -تعالى-: ﴿وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ كُلُّهُ لِلَّهِ﴾ وهما متوافقتان في المعالجة والتحليل، وَمن هنا فلا مسوغ لمَعالجتها.
(٢) تهذيب اللغة ٢١١/١٤ (ت ن ف)، واللسان ٣١٧/١٣ (ف ت ن)، وينظر: مقاييس اللغة ٤٧٢/٤ (ف ت ن)، والغريبين في القرآن والحديث ١٤٠٨/٥.
(٣) سورة الذاريات: الآية ١٣ .
(٤) تهذيب اللغة ٢١١/١٤ (ت ن ف)، وينظر: العين ١٢٧/٨ (ت ن ف).
(٥) العين ١٢٧/٨ (ت ن ف)، بتصرف، وينظر: المحيط في اللغة ٣٧٧/٢ (ف ت ن)، والمحكم والمحيط الأعظم ٥٠٢/٩ (ت ن ف).
(٦) سورة العنكبوت: من الآية ٣ .
(٧) تهذيب اللغة ٢١١/١٤ (ت ن ف)، بتصرف، وينظر: اللسان ١٣/ ٣٢٠ (ف ت ن).

الثالث – الْإِثْم فِي قَوْله: ﴿وَمِنْهُم مَّن يَقُولُ ائْذَن لِّي وَلَا تَفْتِنِّي أَلَا فِي الْفِتْنَةِ سَقَطُوا﴾[1]، أَي: ائْذَنْ لي فِي التَّخَلُّفِ، وَلَا تفتني بِبَنَاتِ الْأَصْفَر، يَعْنِي: الرُّومَيّاتِ. قَالَ ذَلِك على سَبِيل الهُزْء.[2]

الرابع – الميل عن القصد،[3] ومنه "قَوْلهم: فَتَنَتْ فلانةُ فلَانًا، قَالَ بَعضهم: أمالته عَن الْقَصْد، والفَتِينة مَعْنَاهَا فِي كَلَامهم: المُمِيلة عَن الْحق والقضاءِ."[4]

الخامس – "الفِتْنة فِي التأْويل: الظُّلْم. يُقَالُ: فُلَانٌ مَفْتُونٌ بِطَلَبِ الدُّنْيَا قَدْ غَلا فِي طَلَبِهَا."[5]

السادس – الإزالة، ومنه قولهم: "فَتَنْتُ الرجلَ، إِذا أَزَلْتَه عمَّا كَانَ عَلَيْهِ. وَمِنْه قَول الله –جلّ وعزّ–: ﴿وَإِن كَادُوا لَيَفْتِنُونَكَ عَنِ الَّذِي أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ﴾[6]، أَي: ليزيلونك."[7]

السابع – "القَتْلُ، قوله: ﴿إِنْ خِفْتُمْ أَنْ يَفْتِنَكُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾[8]، أي: يقتلونكُمْ."[9]

الثامن – الفِتْنةُ: اختلافُ النَّاسِ بِالْآرَاء.[10]

وقد اجتمع بعض معاني "الفتنة" في قول النبي –صلى الله عليه وسلم–: "إِنِّي أرى الفِتن خِلالَ بُيُوتكُمْ" فَإِنَّهُ يكون القتلَ والحروبَ والاختلافَ

---

(١) سورة التوبة: من الآية ٤٩ .
(٢) تهذيب اللغة ٢١١/١٤ (ت ن ف)، بتصرف، وينظر: الغريبين في القرآن والحديث ١٤٠٩/٥ .
(٣) ينظر: الإبانة في اللغة العربية ٦٤٦/٣ .
(٤) تهذيب اللغة ٢١١/١٤ (ت ن ف)، وينظر: الزاهر في معاني كلمات الناس ٤٧٢/١.
(٥) الغريبين في القرآن والحديث ١٤٠٨/٥، واللسان ٣١٧/١٣ (ف ت ن).
(٦) سورة الإسراء: من الآية ٧٣.
(٧) تهذيب اللغة ٢١٣/١٤ (ت ن ف)، وينظر: تاج العروس ٣٥/ ٤٩٦ (ف ت ن).
(٨) سورة الإسراء: من الآية ٧٣.
(٩) الإبانة في اللغة العربية ٦٤٧/٣ .
(١٠) تهذيب اللغة ٢١٣/١٤ (ت ن ف)، واللسان ٣١٧/١٣ (ف ت ن)، بتصرف فيهما، وينظر: تاج العروس ٤٩٣/٣٥ (ف ت ن).

الَّذِي يكون بَين فرق الْمُسلمين إِذا تَحَزَّبَوا، وَيكون مَا يُبْلَوْنَ بِهِ من زِينَة الدُّنْيَا وشهواتها، فيُفْتنونَ بذلك عَن الْآخِرَة، وَالْعَمَل لَهَا.[1]

الدراسة:

على الرغم من تعدد معنى "الفتنة" في اللغة إلا أننا نلحظ أن أعرفها لدى الناس وأكثرها استعمالًا أن تدل على تلك التي تموج موج البحر، حين يختلفُ الناس ويُعْجَبُ كل ذي رأي برأيه؛ فيقتتلون ويكثر فيهم القتل والهرْج، ويلتبس الحق بالباطل، ولا يَدْرِى القَاتِلُ فِيمَ قَتَلَ، وَلا المَقْتُولُ فِيمَ قُتِلَ. هذا هو المعنى الذي إليه تنصرف الأذهان عندما تقرع "الفتنة" الأسماع.

وقد وردت كلمة "الفتنة" في التنزيل العزيز في غير موضع، منها قول الله -تعالى-: ﴿وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ﴾ وإذا استوقفت أحدَهم -بين يدي هذه الآية- تلتمسَ عنده تأويل "فتنة" أجابك -مستيقنة بها نفسه-: هي اختلاف الناس واضطرابهم واختلاط الأمر عليهم واقتتالهم على دنياهم. وربما أَزَّرَ هذا التأويلَ بحادثة مشهورة وقعت قديمًا أو حديثًا في هذا العصر الباهت، ذي الهم المقيم اللابت.

ومن يطالع هذه المسألة يتبين له أن حمل "الفتنة" ههنا على معناها الظاهر ممتنع، ذلك لأن المفسرين واللغويين أطبقوا على أن المراد بها الشرك بالله،[2] ليس إلا.

والمراد بالشرك -المنفي وقوعه إن قاتلهم المسلمون- إما شرك المشركين، وذلك أن ينتهي بقتلهم أو إيمانهم، وعلى هذا يكون مرادها في الآية: وقاتلوا المشركين الذين يقاتلونكم حتى لا يكون شركٌ بالله، وحتى لا يُعبد دونه أحدٌ، وتضمحلَّ عبادة الأوثان والآلهة والأنداد، وتكونَ العبادة والطاعة لله

---

(١) تهذيب اللغة ٢١٢/١٤ (ت ن ف) بتصرف، وينظر: غريب الحديث، لإبراهيم بن إسحاق الحربي ٩٣٩/٣، وتاج العروس ٤٩٣/٣٥ (ف ت ن).

(٢) ينظر: تأويل مشكل القرآن ص٢٦٠، وجامع البيان ٥٧٠/٣، وتفسير القرآن العظيم، لابن أبي حاتم ٥/ ١٧٠١، والمحكم والمحيط الأعظم ٥٠٢/٩ (ت ن ف)، والتَّفْسِيرُ البَسِيْط ٣/ ٦٢٦، والكشاف ٢٣٦/١.

وحده دون غيره من الأصنام والأوثان.(١) "فليس يُقْبَلُ من المشرك الوثني جِزْيةٌ، ولا يُرضى منه إلا بالإسلام"(٢). أو المراد: ألا يَفتِن المشركون المسلمين؛ فيردوهم عن الإسلام كما كانت قريش تفعل بمكة بمن أسلم كبلال وغيره.(٣)

والأول أوفق التوجيهين؛ لأن أمر الله -عز وجل- المؤمنين بقتال المشركين منتهاه أن يسلم المشركون أو يُقتلوا وإن لم يكفُّوا عن فتنة ضعفاء المسلمين عن دينهم.

وقد أخذ بالوجه الثاني بعض المحدَثين، فقال -في المراد بـ"فتنة"-: "فالفتنة هي إرغام المسلمين على الارتداد عن الإسلام الذي كان يمارسه زعماء المشركين في مكة ضد ضعفاء المسلمين"(٤). بل جعل من هذه الآية دليلًا قويًّا، بل حاسمًا على أن معنى الآية هو قتال المعتدين إلى أن ينتهوا عن موقف العدوان وفتنة المسلمين وتغدو حرية الدعوة وحرية المسلمين في دينهم ودمائهم وأموالهم وحقوقهم مضمونة.(٥)

لكن هذا القول بعيد؛ وإلا فبم نفسرُ إرسال النبي -صلى الله عليه وسلم- رسائله إلى الملوك والأمراء، وكانوا إذ ذاك على الشرك؟ وكيف قاتل الصحابة رضي الله عنهم- أهل الفرس المجوس -ولم يعتدوا على المسلمين- وهم أرذل أهل الكفر منزلة؟.

هذا، وقد سَبَرَ المفسرون غور هذه الآية -محل الشاهد- واستخلصوا منها ما يمحض دلالة "فتنة" على الشرك، فإليك سياقات لغوية تؤيد تأويلهم:

---

(١) جامع البيان ٣/٥٧٠ بتصرف، وينظر: والوجوه والنظائر، لأبي هلال العسكري ص٣٨٢.
(٢) التَّفْسِيرُ البَسِيْط ٣/ ٦٢٦.
(٣) المحرر الوجيز ٢/٥٢٧، بتصرف، وينظر: معاني القرآن وإعرابه ٢/ ٤١٣، تفسير القرآن العظيم، لابن كثير ٤/٥٦ .
(٤) التفسير الحديث، لمحمد عزة دروزة ٢/٣٢ .
(٥) السابق: ٢/٣٣ ، بتصرف .

الأول- سياق لغوي جاء في الآية الكريمة من بيان الغاية الثانية من أمر الله -عز وجل- المؤمنين بقتال المشركين، حيث قال -سبحانه-: ﴿وَيَكُونَ الدِّينُ لِلَّهِ﴾، أي: قاتلوا المشركين حتى لا يبقى شرك، وحتى "لَا يَكُونُ مَعَ دِينِكُمْ كُفْرٌ"(١) و"يَخْلُص التَّوْحِيدُ لِلَّهِ عَزَّ وَجَلَّ"(٢)، "وتضمحل الأديان الباطلة، إما بإهلاك أهلها جميعًا، أو برجوعهم عنها خشية القتل"(٣)، فالقتال منتهاه عند هاتين الغايتين، "قال أهل العلم: أمر الله -تعالى- بالقتال إلى أن يعم الإسلام الدنيا كلها، ولا يبقى على وجه الأرض كافر، فتكليف القتال ممدود إلى هذا الميعاد؛ لقوله -تعالى-: ﴿لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ﴾(٤)"(٥).

الثاني- استدل المفسرون على أن المراد بـ"الفتنة" الشركُ، وأن القتال لا ينتهي إلا بقتل المشركين أو إسلامهم بما رواه البخاري عن ابن عمر -رضي الله عنهما- أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ -ﷺ- قَالَ: "أُمِرْتُ أَنْ أُقَاتِلَ النَّاسَ حَتَّى يَشْهَدُوا أَنْ لاَ إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، وَأَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللَّهِ، وَيُقِيمُوا الصَّلاَةَ، وَيُؤْتُوا الزَّكَاةَ، فَإِذَا فَعَلُوا ذَلِكَ عَصَمُوا مِنِّي دِمَاءَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ إِلَّا بِحَقِّ الإِسْلاَمِ، وَحِسَابُهُمْ عَلَى اللَّهِ"(٦).(٧) قال العلماء: "المراد بهذا أهل الأوثان ومشركو العرب ومن لا يؤمن دون أهل الكتاب"(٨).

---

(١) جامع البيان ٥٣٩/١٣، والتفسير البسيط ١٥٢/١٠، وتفسير القرآن العظيم، لابن كثير ٥٦/٤.
(٢) تفسير القرآن العظيم، لابن أبي حاتم ١٧٠١/٥، وتفسير القرآن العظيم، لابن كثير ٥٦/٤ .
(٣) إرشاد العقل السليم إلى مزايا القرآن الكريم ٢١/٤.
(٤) سورة التوبة: من الآية ٣٣، وسورة الفتح: من الآية ٢٨، وسورة الصف: من الآية ٩.
(٥) إرشاد العقل السليم إلى مزايا القرآن الكريم ٢١/٤.
(٦) صحيح البخاري ١٤/١ برقم (٢٥).
(٧) ينظر: جامع البيان ٥٧٢/٣ .
(٨) شرح الأربعين النووية في الأحاديث الصحيحة النبوية، لابن دقيق العيد ص٥٤، وينظر: نيل الأوطار، للشوكاني ١٤٥/٤ .

فمدلول الحديث يتفق ومقصودَ الآية من حمل الفتنة على معنى الشرك، فقد أُمر النبي -صلى الله عليه وسلم- بقتال المشركين حتى يسلموا.

الثالث- ما رواه سعيد بن جبير -رضي الله عنه- في فتنة ابن الزبير، قال: "خرج علينا عبد الله بنُ عمر -رضي الله عنهما- فرَجوْنا أن يُحَدِّثنا حديثًا حَسنًا، فبادَرَنا إليه رجلٌ يقال له : حكيم، فقال: يا أبا عبد الرحمن، حدِّثْنا عن القتال في الفتنة وعن قوله -تعالى-: ﴿وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ﴾ قال : وهل تدري ما الفتنةُ؟ ثَكِلتْكَ أُمُّكَ، إنَّما كانَ محمد -صلى الله عليه وسلم- يقاتل المشركين، وكان الدخول في دينهم فِتنَة، وليس كقتالكم على المُلْكِ"[1] فها هو ذا سيدنا عبد الله بن عمر -رضي الله عنهما- يبين أن "الفتنة" في الآية شرك المشركين.

وعلى هذا الوجه يكون معنى قوله -تعالى-: ﴿فَإِنِ انْتَهَوْا فَلَا عُدْوَانَ إِلَّا عَلَى الظَّالِمِينَ﴾: "فإن امتنعوا عن الكفر، فلا تقاتلوهم فإنه لا عدوان إلا على الظالمين"[2].

هنا يصدق القول بأن "فتنة" -في آية المسألة- تفسر بالشرك، ولا يقبل إجراؤها على معناها الظاهر؛ إذ لا يتفق ومراد النص القرآني.

❁❁❁❁❁

(١) جامع الأصول في أحاديث الرسول، لابن الأثير ٦٨/١٠ برقم (٧٥٣٦).
(٢) مدارك التنزيل وحقائق التأويل، للنسفي ١٦٦/١ .

٢-تأويله

قال الله -تعالى-: ﴿وَلَقَدْ جِئْنَاهُمْ بِكِتَابٍ فَصَّلْنَاهُ عَلَى عِلْمٍ هُدًى وَرَحْمَةً لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ. هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا تَأْوِيلَهُ﴾(١).

المعنى اللغوي:

"التَّأْويل: تفسير ما يَؤُولُ إليه الشيء. وقد أولته وتأولته تأولًا بمعنى. ومنه قول الأعشى:

عَلَى أَنَّهَا كَانَتْ تَأَوَّلُ حُبِّهَا تَأَوُّلَ رِبعِيِّ السِّقَابِ فَأَصْحَبَا(٢)"(٣)

و"قوله: تَأَوَّلُ حُبِّها: تَفْسِيرُهُ وَمَرْجِعُهُ، أي: إنه كَانَ صَغِيرًا فِي قَلْبِهِ، فَلَمْ يَزَلْ يَنْبُتُ، حَتَّى أَصْحَب فَصَارَ قَديماً كَهَذَا السَّقْب الصَّغِيرِ لَمْ يَزَلْ يَشِبُّ حَتَّى صَارَ كَبِيرًا مِثْلَ أُمه."(٤)

فالتأويل أصله من الأَوْلِ، أي: الرجوع إلى الأصل، ومنه: المَوْئِلُ للموضع الذي يرجع إليه، وذلك هو ردّ الشيء إلى الغاية المرادة منه، علمًا كان أو فعلًا، ففي العلم نحو: ﴿وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللَّهُ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ﴾(٥)، وفي الفعل كقول الشاعر:

وللنّوى قبلَ يومِ البَيْنِ تأويلُ(٦)"(٧)

---

(١) سورة الأعراف: الآية ٥٢، ومن الآية ٥٣ .
(٢) البيت من الطويل، وهو للأعشى الكبير في ديوانه ص١١٣ .
السِّقاب: الَّذِي نُتج فِي أول الرّبيع. تهذيب اللغة ٣٢٥/١٥ (ل م و).
(٣) الصحاح ١٦٢٧/٤، ١٦٥٨ (أ و ل)، وينظر: اللسان ٣٤/١١ (أ و ل).
(٤) مجاز القرآن، لأبي عبيد معمر بن المثنى ص٨٧ .
(٥) سورة آل عمران: من الآية ٧ .
(٦) هذا شطر بيت من البسيط، وقد نسب إلى عبدة بن الطيب في: المفضليات ص١٣٦، والصاحبي في فقه اللغة العربية ومسائلها وسنن العرب في كلامها، لأحمد بن فارس ص١٤٥. وصدره: ولِلأَحِبَّةِ أَيَّامٌ تَذَكَّرُها.
(٧) المفردات في غريب القرآن ص٩٩، بتصرف، وينظر: بصائر ذوي التمييز ٢٩١/٢.

يقال في فعله: "أوّل يُؤوِّل تَأْوِيلًا. وثُلاثيه: آلَ يَؤول، أَي: رَجع وَعَاد."[١] ومنه "حَدِيثِ ابْنِ عَبَّاسٍ -رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا-: "اللَّهُمَّ فقّه فِي الدِّينِ وَعَلِّمْهُ التَّأْوِيل"[٢]، هُوَ مِنْ: آلَ الشَّيْءُ يَؤُول إِلَى كَذَا: أَيْ: رَجَعَ وَصَارَ إِلَيْهِ"[٣].

وإلى هذا المعنى يرجع "تأويل الكلام"، إذ هو: "تفسير الكلام الذي تختلف معانيه، ولا يصحّ إلاّ ببيان غير لفظه، قال:

نحن ضَرَبْناكم على تَنْزيلِهِ

فاليومَ نَضْرِبكُمْ على تأويلِهِ[٤]"[٥]

ولهذا يقولون: أَوَّلَ الكلامَ وتَأَوَّلَهُ: فَسَّره.[٦]

الدراسة:

إذا جلس أحدنا في رحاب كتاب الله -عز وجل- يُطَيِّب فاه بتلاوته، وأبصر كلمة "تأويل" تُرَاه يلقيها عقله -بلا تروٍّ- على معناه الأظهر والألصق بالأذهان، وهو: تفسير الكلام وبيان معانيه.

لكن ثَمَّ آية لا يوافق هذا المعنى اللغويُّ بغيَتَها، وهي قوله -سبحانه-: ﴿هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا تَأْوِيلَهُ﴾[٧] -والضمير في قوله: ﴿تَأْوِيلَهُ﴾ راجع إلى القرآن الحكيم[٨]- فـ"التأويل" هنا لا يراد به تفسير كلامه وتبيانَ معانيه، كما ذهب أبو عبيدة حيث قال -في معناه-: "هل ينظرون إلّا بيانه ومعانيه وتفسيره"[٩].

---

(١) تهذيب اللغة ٣٢٩/١٥ (أ و ل).
(٢) مصنف بن أبي شيبة ٣٨٣/٦ برقم (٣٢٢٢٣).
(٣) النهاية في غريب الحديث والاثر ٨٠/١ (أول).
(٤) البيت من مشطور الرجز، لعبدالله بن رواحة ، في ديوانه ص١٤٤ برواية:
نحن ضَرَبْناكم على تَأويلِه كما ضربناكم على تنزيله
(٥) العين ٣٦٩/٨ (أ و ل)، بتصرف، وينظر: تهذيب اللغة ٣٢٩/١٥ (أ و ل).
(٦) اللسان ٣٣/١١ (أ و ل) بتصرف، وينظر: القاموس المحيط ص٩٦٣ (أ و ل).
(٧) النظر هنا بمعنى الانتظار. التَّفْسِير البَسِيْط ١٦٣/٩ .
(٨) ينظر: معاني القرآن، للفراء ٣٨٠/١.
(٩) مجاز القرآن ص٢١٦ .

وإنما المعنى الأوجب أن يكون على أصل معناه اللغوي السالف الذكر، بمعنى المرجع والمصير وردّ الشيء إلى الغاية المرادة منه.

وقد تباينت تعابير المفسرين وأهل اللغة في إسقاط هذا المعنى على الآية -موضع الشاهد- وبيان معنى مرجعه وعاقبته، على النحو الآتي:

١-منهم من جعل المصير -في الآخرة- ليكون ما يؤول إليه من تبين صدقه وظهور صحة ما نطق به من الوعد والوعيد.(١) ومن هنا يكون معنى الآية: "هل ينتظر هؤلاء المشركون الذين يكذبون بآيات الله ويجحدون لقاءه إلا ما يؤول إليه أمرهم، من ورودهم على عذاب الله، وصِلِيِّهم جحيمَه، وأشباه هذا مما أوعدهم الله به.(٢) و"حيث أثابَ الله -تبارك وتعالى- أولياءَه وأعداءَه ثواب أعمالهم"(٣).

٢- منهم من قصر "التأويل" على "البعث"، فقال: "معناه: هل ينظرون إلا ما يؤُول إليه أمرهم من البعث"(٤).

٣- بعضهم وسع تأويل ﴿تَأْوِيلَهُ﴾؛ ليعمَّ ما تحقق من وقائعه في الدنيا كغزوة بدر، وما سيكون يوم القيامة.(٥) فـ"لَا يَزَالُ يَجِيءُ مِنْ تَأْوِيلِهِ أَمْرٌ حَتَّى يَوْمِ الْحِسَابِ، حَتَّى يَدْخُلَ أَهْلُ الْجَنَّةِ الْجَنَّةَ وَأَهْلُ النَّارِ النَّارَ، فَتَمَّ تَأْوِيلُهُ يَوْمَئِذٍ"(٦).

وبقليل تأمل تستبين رجاحة القول الأول؛ إذ إن "التأويل" -لغة- المرجع والمصير، والبعث -مآلًا لهم على القول الثاني- ليس غاية الخلائق

---

(١) الكشاف ١٠٩/٢، بتصرف، وينظر: أنوار التنزيل وأسرار التأويل ١٥/٣، وروح المعاني ٣٦٧/٤.
(٢) جامع البيان ٤٧٨/١٢، بتصرف.
(٣) جامع البيان ٤٧٩/١٢، وينظر: تفسير القرآن، لأبي المظفر السمعاني ١٨٧/٢.
(٤) معاني القرآن وإعرابه ٣٤١/٢، وينظر: تهذيب اللغة ٥٨/٥ (هـ ش ب)، ومقاييس اللغة ١٦٢/١ (أ و ل)، وعمدة الحفاظ في تفسير أشرف الألفاظ، للسمين الحلبي ١٣٩/١.
(٥) ينظر: جامع البيان ٤٧٩/١٢، وينظر: تفسير القرآن العظيم، لابن أبي حاتم ١٤٩٤/٥
(٦) تفسير القرآن العظيم، لابن أبي حاتم ١٤٩٤/٥، وينظر: تفسير القرآن العظيم، لابن كثير ٤٢٥/٣ .

ومنتهى أمرهم، وإنما مآلهم ما يتلو البعث من وقوع الجزاء من وعد الله ووعيده، أما اتساع دلالة "التأويل"؛ ليضم أحداثَه في الدنيا والآخرة، فهو -وإن لم يَخْلُ من قليل وجاهة- ضعيف؛ لأن الظرف ﴿يَوْمَ﴾ في قوله -تعالى- بُعَيْدَهُ-: ﴿يَوْمَ يَأْتِي تَأْوِيلُهُ﴾ يصدق على يوم القيامة[1]، فيُخْرِج حمل التأويل على ما وقع منه في الدنيا كغزوة بدر وأشباهها.

وتَقَيُّدُ وقوع تأويله بيوم القيامة هو العلة عينُها التي ترد إطلاق "التأويل" على المعنى الظاهر؛ بالإضافة إلى أن اعتراف المشركين -لمَّا عاينوا العذاب، وحَلَّ بهم العقاب- بأنِ الرسل قد صَدَقُوا عن الله -وذلك حين لا ينفعهم التصديق[2]- إذ قالوا: ﴿قَدْ جَاءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِالْحَقِّ﴾ ثم التماسهم شافعًا -بل شفعاء- يدرأون عنهم العذاب، بقولهم: ﴿فَهَل لَّنَا مِن شُفَعَاءَ فَيَشْفَعُوا لَنَا﴾، ثم -بعد يأسهم من شفعاء- يطلبون الرِّدة إلى الدنيا علهَم يحسنون العمل -وأنى ذلك- بعبارة تحكي غاية الوجس وبالغ الندم، حين قالوا: ﴿أَوْ نُرَدُّ فَنَعْمَلَ غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ﴾[3] - يصور التحسراتِ والنداماتِ المتتابعات يوم القيامة، ويَشهد بأن التأويل في الآية سيكون مصيرهم يوم القيامة، وتقطع بأن حمل "التأويل" على معناه المعروف -تفسير الكلام وبيان مقاصده- بات بعيدًا بل مرفوضًا، وإلا فما معنى أن يفسر معناه يوم القيامة؟ فالغاية منه معاينة المشركين يوم القيامة ما جحدوه سلفًا في دنياهم.

❁❁❁❁❁

(١) ينظر: غريب القرآن، لابن قتيبة ص١٦٨، وجامع البيان ٤٧٩/١٢، وإرشاد العقل السليم إلى مزايا القرآن الكريم ٢٣٢/٣.
(٢) ينظر: جامع البيان ٤٨٠/١٢ .
(٣) سورة الأعراف: من الآية ٥٣ .

٣- تَحْمِل

قال الله -تعالى-: ﴿وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَاهُ بِهَا وَلَكِنَّهُ أَخْلَدَ إِلَى الْأَرْضِ وَاتَّبَعَ هَوَاهُ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ الْكَلْبِ إِنْ تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَثْ﴾(١).

المعنى اللغوي:

يدل الفعل "حَمَلَ" في اللغة على معنيين:

الأول- الإقلال(٢)، يقال: "حَمَلْتَ الشيء على ظهري أَحْمِلُهُ حَمْلاً. ومنه قوله -تعالى-: ﴿فَإِنَّهُ يَحْمِلُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وِزْرًا . خَالِدِينَ فِيهِ وَسَاءَ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ حِمْلًا﴾(٣)، أي: وِزْراً. وَحَمَلَتِ المرأةَ والشَجَرةَ حَمْلاً. وَمنه قوله -تعالى-: ﴿حَمَلَتْ حَمْلاً خفيفاً﴾(٤)"(٥) قال ابن السكيت: "الحَمْلُ: ما كان في بطن أو على رأس شجرة، وجمعه أَحْمَال، والحِمْلُ: ما حُمِل على ظهرٍ أو رأسٍ"(٦) "وحَمِيلُ السَّيْل: مَا يَحمِلُ من الغُثَاء. وَفِي الحَدِيث، فِي وصف قوم: يخرجُون من النَّار، فيُلْقَونَ فِي نهر الْجنَّة، فينْبُتُونَ كَمَا تنْبت الْحَبَّة فِي حَمِيلِ السَّيْل(٧)"(٨).

"والحَمِيل: الَّذِي يُحْمَل مِنْ بَلَدِهِ صَغِيراً وَلَمْ يُولَد فِي الإِسلام؛ وَمِنْهُ قَوْلُ عُمَرَ -رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ- فِي كِتَابِهِ إِلى شُرَيْح: "الحَمِيل لَا يُوَرَّث إِلا بِبَيِّنَة" سُمِّي حَميلًا؛ لأَنه يُحْمَل صَغِيرًا مِنْ بِلَادِ الْعَدُوِّ وَلَمْ يُولَدْ فِي الإِسلام"(٩).

---

(١) سورة الأعراف: من الآية ١٧٦ .
(٢) ينظر: مقاييس اللغة ١٠٦/٢ (ح م ل).
(٣) سورة طه: من الآية ١٠٠، والآية ١٠١ .
(٤) سورة الأعراف: من الآية ١٨٩ .
(٥) الصحاح ١٦٧٦/٤ (ح م ل).
(٦) إصلاح المنطق ص١١ .
(٧) المحكم والمحيط الأعظم ٣٦٩/٣ (ح ل م)، وينظر: النهاية في غريب الحديث والأثر ٤٤٢/١ (حمل).
(٨) صحيح البخاري ١٦٠/١ برقم (٨٠٦)، وصحيح مسلم ١٦٣/١ برقم (١٨٢).
(٩) اللسان ١٧٨/١١ (ح م ل)، وينظر: غريب الحديث، لأبي عبيد القاسم بن سلام ٧١/١.

الثاني- الدَّفْعَة في الحرب[1]، ومنه قولهم: حَمَلَ عليه في الحرب حَمْلَةً.[2] أي: شد عليه ودفعه.

الدراسة:

يستعمل الفعل "حَمَلَ" في ظاهر معناه في الدلالة على إقلال الشيء على الظهر أو الرأس أو الدابة...

وقد ورد في قوله -تعالى-: ﴿إِنْ تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ﴾ لكن حمله على معناه المشهور -إفادة الإقلال- ممتنع؛ ولا يَستقيمَ عليهَ الكلام.

أما المعنى اللائق بالآية أن يكون بمعنى الطرد العنيف والمهاجمة، مُشْتَقٌّ مِنَ الْحَمْلِ الَّذِي هُوَ الْهُجُومُ عَلَى أَحَدٍ لِقِتَالِهِ.[3] فمرده حينئذ إلى المعنى اللغوي الثاني المغمور.

وعلى هذا يكون معناه في تضاعيف الآية: أن هذا الكافر إن زجرته لم ينزجر، وإن تركته لم يهتد، فالحالتان عنده سواء كحالتي الكلب؛ فإنه إن طُرد كان لاهثًا، وإن تُرك وربض كان أيضًا لاهثًا، فهو في الحالتين لاهثٌ كهذا الكافر في الحالتين ضال.[4] ضرب الله -عز وجل- للكافر -المعرض عن آياته- مثلًا بأخس حَيَوَان فِي أخس الْحَال؛[5] ذلك لأن كُلُّ شَيْءٍ يَلْهَثُ إِنَّمَا يَلْهَثُ مِنْ إِعْيَاءٍ أَوْ عَطَشٍ إِلَّا الْكَلْبَ، فَإِنَّهُ يَلْهَثُ فِي حَالِ الْكَلَالِ وَفِي حَالِ الرَّاحَةِ وَفِي حَالِ الْعَطَشِ.[6]

---

(١) ينظر: كتاب الأفعال ابن القوطية ص٤٠ (ح م ل).
(٢) الصحاح ١٦٧٧/٤ (ح م ل)، بتصرف، وينظر: اللسان ١٨١/١١ (ح م ل).
(٣) التحرير والتنوير ١٧٨/٩ بتصرف، وينظر: الغريبين في القرآن والحديث ٤٩٦/٢ .
(٤) التفسير البسيط ٤٧٠/٩ بتصرف، وينظر: تفسير القرآن، للسمعاني ٢٣٣/٢، ومعالم التنزيل في تفسير القرآن ٣٠٥/٣ .
(٥) تفسير القرآن، للسمعاني ٢٣٣/٢، بتصرف.
(٦) معالم التنزيل في تفسير القرآن ٣٠٥/٣، بتصرف.

"وهذا المثل في قول كثير من أهل العلم بالتأويل عام في كل من أوتي القرآن فلم يعمل به." [١] "وهذه الآية من أشد الآيات على أهل العلم إذا مالوا عن العلم إلى الهوى"[٢].

وعلة امتناع المعنى اللغوي الظاهر تبرز من سياقات حالية ثلاثة:

الأول– أن الكلب ليس من الحيوانات التي من شأنها أن يحمل عليها كالإبل والحمير والبغال...

الثاني– أن الكلب من الحيوانات النافرة التي يشمئز الإنسان من قنيتها، والملائكة من جوارها، ولهذا لا تلج الملائكة بيتًا فيه كلب، قَالَ رسول الله – صلى الله عليه وسلم–: "لَا تَدْخُلُ الْمَلَائِكَةُ بَيْتًا فِيهِ صُورَةٌ، وَلَا كَلْبٌ، وَلَا جُنُبٌ"[٣].

الثالثة– تسليط القرآن الضوء ههنا على حالة مقززة تشمئز منها الأبصار، تلازم الكلب وهي لهثه –في جميع أحواله– واللهث: إدلاع الكلب لسانه عند الإعياء وشدة العطش[٤].

وهذا كله يحمل النفوس على طرده وزجره بعنف.[٥] ويقطع بأن المراد بالحَمْل هنا الطرد وليس الإقلال.

❁❁❁❁❁

(١) الجامع لأحكام القرآن ٣٢٣/٧.
(٢) زاد المسير في علم التفسير ١٧١/٢.
(٣) سنن أبي داود ٥٨/١ برقم (٢٢٧).
(٤) ينظر: العين ٤٢/٤ (هـ ث ل)، وتهذيب اللغة ١٤٥/٦ (هـ ث ل).
(٥) ينظر: التحرير والتنوير ١٧٨/٩.

الخاتمـــة

اللهم، ذا المحمدة، يا رافعَ الموجدة ودافعَ المفسدة، ومحرك الأقلام ومجري الكلام، يا ذا الآلاء والأيادي للعاكف والبادي، صل على رحمة الرحمن، مفسر القرآن، ذي الحجة والبيان، وارض عن الصحابة مراسيل العلم والتقى، أفهم المتأولين، وأصدق العالِمين، وارض عمن حذا حذوهم ونهج نهجهم إلى يوم الدين. أما بعد:

فهذا جهد المُقِلِّ، سطره القلم، ووضعته بين يدي ربي الكريم رجاء القبول، حاولت فيه تصحيح مسار خاطئ تعلق بأقدس الكلم وأعلاه، فليست الزلة فيه كالزلة في غيره؛ إذ ﴿لَا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ تَنْزِيلٌ مِنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ﴾(١).

وقد جهد البحث جهده؛ ليرصد طائفة من المفردات التي امتنع ظاهر معناها اللغوي، وقد انجفل بعضنا يتأولها به، ويخالف إجماع العلماء على رده، وتتعاظم الخطورة -والحالة هذه- حين ينجم عن هذا الخطأ مساس بثوابت الدين؛ ومن هنا عمدتُ إلى معالجة هذه الفكرة من خلال هذه الوريقات، ولعلها أصابت المحز.

هذا، وقد أثمر البحث عدة نتائج، هي:

الأولى- أثبت البحث أن حمل اللفظ على معناه اللغوي الظاهر الذي تأكد امتناعه يفضي -في غير موضع- إلى المساس بثوابت الدين، كالقدح في عصمة الأنبياء والمرسلين -عليهم الصلاة والسلام- وأن ينُسب إليهم ما لا يليق بهم؛ مما يدل على خطورة التعجل في التفسير وعدم التثبت من صحة المعنى من مظانه.

من ذلك ما سلف في بيان المراد من قول الله -تعالى- على لسان قوم شعيب لشعيب-: ﴿أَوْ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنَا قَالَ أَوَلَوْ كُنَّا كَارِهِينَ﴾(٢)، فقد أورد

(١) سورة فصلت: الآية ٤٢ .
(٢) سورة الأعراف: الآية ٨٨ .

بعض المفسرين قولًا فاسدًا يقضي بتكفير سيدنا شعيب -عليه الصلاة والسلام- حيث راعى فيه المعنى اللغوي الظاهر الممتنع، وهو دلالة "العَوْد" على الرجوع إلى الشيء بعد تركه.(١)

الثانية- من أهم نتائج هذا الطرح أنه يضرب بقوة على يد حاطب الليل ذي النظرة العجلى الذي يجمع -حين يطالع التفاسير- الغث والضعيف من الأقوال، دون تنقيح وتفنيد، ثم يبثها على العامة، فينخدع بعضهم بما نقله من قول باطل ثبت كذبُ صاحبه، وما أكثرَ القلوب الزائغة التي تتصيد هذا التُّرَهَات!.

من ذلك ما تداولته كتب التفاسير في تفسير قوله الله -تعالى-: ﴿وَوَجَدَكَ ضَالًّا فَهَدَى﴾(٢)، حيث ذكروا أن بعض المفسرين حملوا "الضلال" هنا على ظاهر معناه اللغوي؛ فضلوا، منهم محمد بن السائب الكلبي، ومحمد بن مروان السُّدِّي -الملقب بالسُّدِّيِّ الصغير- حيث قال الكلبي: "﴿وَوَجَدَكَ ضَالًّا﴾ يعني: كافرًا في قوم ضُلَّال، فهداك للتوحيد"(٣). "وقال السُّدِّيِّ: كان على أمر قومه أربعين سنة"(٤) وهذان ممن جرَّحتهم كتب الرجال، ونعتتهم بأنهما كذابان ساقطان متروكا الحديث؛ ومن ثم لا يؤخذ عنهم.

الثالثة- يستحثنا البحث -بعد الضعف اللغوي المتنامي- لينعطف بنا نحو الجلوس بين يدي الدرس اللغوي، ويستوقفَنا عند أسفار المفسرين الزاخرة، فقد تبين -بلا ريب- أن هذه المزالق التفسيرية التي تنكَّبَ المرء فيها عن جادة الصواب أمارةٌ بينة على فقرنا اللغوي الشديد، فما حصيلة جُلِّ الناس من العربية سوى نزر يسير يتوكأ عليه، لا يشفي عِيًّا، ولا يروي ظَمِيًّا؛ ومن ثم لا يعول عليه في بيان المقاصد القرآنية، ناهيك عن أننا لم نتمهَّر في إسقاط المعنى الأوفق على الآية.

---

(١) ينظر: البحث: المبحث الأول، المطلب الثاني.
(٢) سورة الضحى: الآية ٧ .
(٣) التفسير البسيط ٢٤/ ١١٢، وينظر: المحرر الوجيز ٤٩٤/٥، ومفاتيح الغيب ١٩٧/٣١ .
(٤) التفسير البسيط ٢٤/ ١١٢، وينظر: جامع البيان ١٤/ ٤٨٨، والمحرر الوجيز ٤٩٤/٥ .

ومن هنا لا يفسِّر مُفسِّر حتى يكون من مادته واثقًا وفي علمه باثِقًا.

الرابعة- أثبت البحث أن حمْل المفردة القرآنية على ظاهرها الممتنع لم يقع من الدارسين المتخصصين فقط، بل زلت عنده أقدام بعض أهل المعاني كالأخفش حيث جعل الفعل "نَقْدِر" من القدرة، في قول الله -تعالى-: ﴿وَذَا النُّونِ إِذْ ذَهَبَ مُغَاضِبًا فَظَنَّ أَنْ لَنْ نَقْدِرَ عَلَيْهِ﴾[1] فقال: "أي: لن نَقْدِرَ عليه العقوبة؛ لأنه قد أذنب بتركه قومَه"[2]؛ مما يقتضي كون سيدنا يونس -عليه الصلاة والسلام- شاكًّا في قدرة الله -عز وجل- وهذا لا يجوز نسبته إلى عامة المؤمنين فضلًا عن الأنبياء.[3]

الخامسة- تبين من خلال البحث أن ثمة ظواهر وعلاقات دلالية بين المعنى الممتنع والدلالة التفسيرية التي تلائم الآية، من ذلك التطور الدلالي في الفعل "لَمَسَ" من قوله -تعالى-: ﴿وَأَنَّا لَمَسْنَا السَّمَاءَ فَوَجَدْنَاهَا مُلِئَتْ حَرَسًا شَدِيدًا وَشُهُبًا﴾[4]، حيث دل -في معناه الظاهر الممتنع- على الجسِّ باليد، ثم تطوَّر إلى الدلالة على كل طلب، على سبيل تعميم الدلالة، وبها فُسرت الآية، وهذه الدلالة التفسيرية هي المناسبة للآية.[5]

ومنها ما انتقل عن المعنى الظاهر الممتنع إلى الدلالة التفسيرية من طريق المجاز، كما في دلالة ﴿يَتَنَازَعُونَ فِيهَا كَأْسًا﴾[6]، فالمعنى اللغوي الممتنع يدل على التخاصم، والمعنى المجَازي -وهو الذي عليه الآية-: التعاطي والتداول.[7]

هذا، وقد انبثق من هذا البحث توصية، أُراني أستحسنها من باحث ذي جد، وذلك أني قرعتُ بابها، ثم -بهذه المفردات القليلات- جلست خلف الباب،

(١) سورة الأنبياء: من الآية ٨٧.
(٢) معاني القرآن ٢/٤٤٩.
(٣) ينظر: البحث: المبحث الأول: المطلب الثاني.
(٤) سورة الأنبياء: من الآية ٨٧.
(٥) ينظر: البحث: المبحث الثالث: الحديث عن الكافرين.
(٦) سورة الطور: من الآية ٢٢.
(٧) ينظر: البحث: المبحث الثاني: الغيبيات.

وما سبرتُ دهاليزها، ولعل أَحْوَذِيًّا لَبِيبًا يجمع ما تركتُ -وأمثلته بين دفتي المصحف منبثة موفورة- ويحسن معالجته، ويضم إليه ما جمعتُ؛ ليخرج منه كتابًا متكاملًا في ماجستير أو دكتوراه، ينتفع به وينفع، فكلما قرأه قارئ تعاظم به أجره، وتنامى منه ثوابه، ولا أرجى في حسنات الصدقات الجاريات من العلم المديد، لا سيما ما تعلق بالقرآن المجيد.

وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم.

فهرس المراجع والمصادر

١-الإبانة في اللغة العربية، لسَلَمة بن مُسْلِم العَوْتبي الصُحاري، تح: د. عبدالكريم خليفة، وآخرين، وزارة التراث القومي والثقافة، مسقط، سلطنة عمان، ط الأولى ١٤٢٠هـ/١٩٩٩م.

٢-الإتقان في علوم القرآن، للسيوطي، تح: محمد أبو الفضل إبراهيم، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ط ١٣٩٤هـ/١٩٧٤م.

٣-أحكام القرآن، للرازي الجصاص، تح: محمد صادق القمحاوي، دار إحياء التراث العربي، بيروت، د.ت .

٤-إرشاد العقل السليم إلى مزايا القرآن الكريم، لأبي السعود العمادي، دار إحياء التراث العربي، بيروت، د.ت .

٥-أساس البلاغة، للزمخشري، تح: محمد باسل عيون السود، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط الأولى ١٤١٩هـ /١٩٩٨م.

٦-إصلاح المنطق، لابن السكيت، تح: محمد مرعب، دار إحياء التراث العربي، ط الأولى ١٤٢٣هـ/٢٠٠٢م.

٧-أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن، لمحمد الأمين الشنقيطي، دار الفكر، بيروت – لبنان، ١٤١٥هـ ،١٩٩٥م.

٨-إعراب القرآن، لأبي جعفر النَّحَّاس، وضع حواشيه وعلق عليه: عبد المنعم خليل إبراهيم، منشورات محمد علي بيضون، دار الكتب العلمية، بيروت، ط الأولى ١٤٢١هـ.

٩-أنوار التنزيل وأسرار التأويل، للبيضاوي، تح: محمد عبد الرحمن المرعشلي، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ط الأولى، ١٤١٨هـ.

١٠-البحر المحيط في التفسير، لأبي حيان الأندلسي، تح: صدقي محمد جميل، دار الفكر، بيروت، ط ١٤٢٠هـ.

١١-البحر المديد في تفسير القرآن المجيد، لابن عجيبة، تح: أحمد عبد الله القرشي رسلان، الناشر: الدكتور حسن عباس زكي، القاهرة، ط ١٤١٩هـ.

١٢-البرهان في علوم القرآن، للزركشي، تح: محمد أبو الفضل إبراهيم، ط الأولى ١٣٧٦هـ/١٩٥٧م.

١٣-الناشر : دار إحياء الكتب العربية عيسى البابى الحلبي وشركائه
١٤-بيان المعاني، لعبدالقادر العاني، مطبعة الترقي، دمشق،ط الأولى ١٣٨٢هـ/١٩٦٥م.
١٥-تاج العروس من جواهر القاموس، للزَّبيدي، تح: مجموعة من المحققين، دار الهداية، د.ت.
١٦-تأويل مختلف الحديث، لابن قتيبة الدينوري، المكتب الاسلامي، مؤسسة الإشراق، ط ط الثانية ١٤١٩هـ/١٩٩٩م.
١٧-تأويل مشكل القرآن، لابن قتيبة الدينوري، تح: إبراهيم شمس الدين، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، د.ت .
١٨-تحرير المعنى السديد وتنوير العقل الجديد من تفسير الكتاب المجيد، للطاهر بن عاشور، الدار التونسية للنشر، تونس، ١٩٨٤هـ.
١٩-التذكرة الحمدونية، لابن حمدون البغدادي، دار صادر، بيروت، ط الأولى ١٤١٧هـ.
٢٠-التذييل والتكميل في شرح كتاب التسهيل، لأبي حيان الأندلسي، تح: د. حسن هنداوي، دار القلم، ط الأولى، د.ت.
٢١-التَّفْسِيرُ البَسِيْط، لأبي الحسن الواحدي، أصل تحقيقه في (١٥) رسالة دكتوراة بجامعة الإمام محمد بن سعود، ثم قامت لجنة علمية من الجامعة بسبكه وتنسيقه، عمادة البحث العلمي، جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، ط الأولى ١٤٣٠هـ.
٢٢-التفسير الحديث، لمحمد عزت دروزة، دار إحياء الكتب العربية، القاهرة، ١٣٨٣هـ.
٢٣-تفسير الشعراوي، مطابع أخبار اليوم، د.ت.
٢٤-تفسير القرآن العظيم لابن أبي حاتم، تح: أسعد محمد الطيب، مكتبة نزار مصطفى الباز، المملكة العربية السعودية، ط الثالثة ١٤١٩هـ.
٢٥-تفسير القرآن العظيم، لابن كثير، تح: سامي بن محمد سلامة، دار طيبة للنشر والتوزيع، ط الثانية ١٤٢٠هـ/١٩٩٩م.
٢٦-تفسير القرآن، لأبي المظفر السمعاني، تح: ياسر بن إبراهيم، وغنيم بن عباس بن غنيم، دار الوطن، الرياض، السعودية، ط الأولى ١٤١٨هـ/١٩٩٧م.

٢٧-التفسير والمفسرون، د.محمد السيد حسين الذهبي، مكتبة وهبة، القاهرة، د.ت.
٢٨-التفسير المنير في العقيدة والشريعة والمنهج، د. وهبة بن مصطفى الزحيلي، دار الفكر المعاصر، دمشق، ط الثانية ١٤١٨هـ.
٢٩-تمهيد القواعد بشرح تسهيل الفوائد، لناظر الجيش، تح: أ. د. علي محمد فاخر وآخرين، دار السلام للطباعة والنشر والتوزيع والترجمة، القاهرة، جمهورية مصر العربية، ط الأولى ١٤٢٨هـ.
٣٠-تهذيب اللغة، للأزهري، تح: محمد عوض مرعب، دار إحياء التراث العربي، بيروت، طبعة: الأولى، ٢٠٠١م.
٣١-الحماسة البصرية، لعلي بن أبي الفرج البصري، تح: مختار الدين أحمد، عالم الكتب، بيروت، د.ت .
٣٢-الجامع لأحكام القرآن، للقرطبي، تح: هشام سمير البخاري، دار عالم الكتب، الرياض، المملكة العربية السعودية، ط ١٤٢٣هـ/٢٠٠٣م.
٣٣-الجامع الكبير (سنن الترمذي)، تح: بشار عواد معروف، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ١٩٩٨م.
٣٤-جامع الأصول في أحاديث الرسول، لابن الأثير، تح: عبد القادر الأرنؤوط، مكتبة الحلواني، مكتبة دار البيان، ط الأولى، د.ت .
٣٥-[ترقيم الكتاب موافق للمطبوع ومذيل بحواشي المحقق الشيخ عبد القادر الأرنؤوط – رحمه الله – وأيضا أضيفت تعليقات أيمن صالح شعبان (ط : دار الكتب العلمية) في مواضعها من هذه الطبعة]
٣٦-الجزء [١ ،٢] : ١٣٨٩ هـ ، ١٩٦٩ م
٣٧-جامع البيان في تأويل القرآن، لابن جرير الطبري، تح: أحمد محمد شاكر، مؤسسة الرسالة، ط الأولى ١٤٢٠هـ/ ٢٠٠٠م.
٣٨-دَرْجُ الدُّرر في تَفسِيرِ الآيِ والسُّوَر، لعبد القاهر الجرجاني، تح: وَلِيد بِن أحمد الحُسَيْن، وإياد عبد اللطيف القيسي، مجلة الحكمة، بريطانيا، ط الأولى ١٤٢٩هـ/٢٠٠٨م.

٣٩-الدر الفريد وبيت القصيد، لمحمد بن أيدمر المستعصمي، تح:د. كامل سلمان الجبوري، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط الأولى ١٤٣٦هـ/٢٠١٥م.
٤٠-الدر المنثور في التفسير بالمأثور، لجلال الدين السيوطي، دار الفكر، بيروت، د.ت .
٤١-ديوان إبراهيم بن هَرْمَة، تح: محمد جبار المعيبد، مكتبة الأندلس، بغداد، ١٣٨٩هـ/١٩٦٩م.
٤٢-ديوان الأخطل، شرحه: مهدي محمد ناصر الدين، دار الكتب العلمية بيروت، ١٤١٤هـ/١٩٩٤م.
٤٣-ديوان دريد بن الصمة، تح:د. عمر عبد الرسول، دار المعارف، د.ت .
٤٤-ديوان عَبيد بن الأبرص، شرحه: أشرف أحمد عدرة، دار الكتاب العربي، ط الأولى ١٤١٤هـ/١٩٩٤.
٤٥-ديوان القطامي، تح:د. إبراهيم السامرائي وأحمد مطلوب، دار الثقافة، بيروت، ١٩٦٠م.
٤٦-ديوان ابن مقبل، تح:د. عزة حسن، دار الشرق العربي، بيروت، ١٤١٦هـ/١٩٩٥م.
٤٧-ديوان لبيد بن ربيعة العامري، دار صادر، بيروت، د.ت.
٤٨-ديوان النابغة الذبياني، شرح: عباس عبدالساتر، دار الكتب العلمية، بيروت، ط الثالثة ١٤١٦هـ/١٩٩٦م.
٤٩-ديوان هُبة بن الخشرم العذري، د.يحيى الجبوري، دار القلم، الكويت، ط الثانية ١٤٠٦هـ/١٩٨٦م.
٥٠-روح البيان، لإسماعيل حقي، دار الفكر، بيروت، د.ت .
٥١-روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني، للآلوسي، تح: علي عبد الباري عطية، دار الكتب العلمية، بيروت، ط الأولى ١٤١٥هـ.
٥٢-زاد المسير في علم التفسير، لابن الجوزي، تح: عبد الرزاق المهدي، دار الكتاب العربي، بيروت، ط الأولى ١٤٢٢هـ.
٥٣-الزاهر في معاني كلمات الناس، لأبي بكر محمد بن القاسم الأنباري، مؤسسة الرسالة، بيروت ١٤١٢هـ/١٩٩٢م.

٥٤-السراج المنير في الإعانة على معرفة بعض معاني كلام ربنا الحكيم الخبير، للخطيب الشربيني، مطبعة بولاق (الأميرية)، القاهرة، ١٢٨٥هـ.
٥٥-سنن أبي داود، تح:محمد محيي الدين عبد الحميد، المكتبة العصرية، صيدا، بيروت.
٥٦-سنن ابن ماجه، تح: شعيب الأرنؤوط، وآخرين، دار الرسالة العالمية، ط الأولى ١٤٣٠هـ /٢٠٠٩م، وتح: محمد فؤاد عبد الباقي، دار إحياء الكتب العربية، فيصل عيسى البابي الحلبي.
٥٧-شرح ديوان المتنبي، للعكبري، تح: مصطفى السقا، وإبراهيم الأبياري، وعبد الحفيظ شلبي، دار المعرفة، بيروت، د.ت.
٥٨-شرح المفصل للزمخشري، لابن يعيش، قدم له: الدكتور إميل بديع يعقوب، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط الأولى ١٤٢٢هـ /٢٠٠١م.
٥٩-شرح نقائض جرير والفرزدق، لأبي عبيدة معمر بن المثنى، تح: محمد إبراهيم حور، وليد محمود خالص، المجمع الثقافي، أبو ظبي، الإمارات، ط الثانية ١٩٩٨م.
٦٠-الشعر والشعراء، لابن قتيبة الدينوري، دار الحديث، القاهرة، ١٤٢٣هـ.
٦١-شمس العلوم ودواء كلام العرب من الكلوم، لنشوان بن سعيد الحميرى، تح: د.حسين بن عبد الله العمري، وآخرين، دار الفكر المعاصر، بيروت، لبنان، دار الفكر، دمشق، سورية، ط الأولى ١٤٢٠هـ/١٩٩٩م.
٦٢-الصاحبي في فقه اللغة العربية ومسائلها وسنن العرب في كلامها، لأحمد بن فارس، تح:محمد علي بيضون، ط الأولى ١٤١٨هـ/١٩٩٧م.
٦٣-الصحاح تاج اللغة وصحاح العربية، للجوهري، تح: أحمد عبد الغفور عطار، دار العلم للملايين، بيروت، ط الرابعة ١٤٠٧هـ /١٩٨٧م.
٦٤-صحيح البخاري "الجامع المسند الصحيح المختصر من أمور رسول الله – صلى الله عليه وسلم– وسننه وأيامه"، تح: محمد زهير بن ناصر الناصر، دار طوق النجاة، ط الأولى ١٤٢٢هـ.
٦٥-صحيح مسلم "المسند الصحيح المختصر بنقل العدل عن العدل إلى رسول الله –صلى الله عليه وسلم"، لمسلم بن الحجاج القشيري، تح: محمد فؤاد عبد الباقي، دار إحياء التراث العربي، بيروت، د.ت.

٦٦-عِنَايةُ القَاضِي وكِفَايةُ الرَّاضِي عَلَى تفْسيرِ البَيضَاوي، لشهاب الدين الخفاجي، دار صادر، بيروت، د.ت .
٦٧-غرائب القرآن ورغائب الفرقان، لنظام الدين النيسابوري، تح: الشيخ زكريا عميرات، دار الكتب العلمية، بيروت، ط الأولى ١٤١٦هـ.
٦٨-غريب الحديث، لحمد بن محمد الخطابي البستي، تح: عبد الكريم إبراهيم العزباوي، جامعة أم القرى، مكة المكرمة ١٤٠٢هـ.
٦٩-غَرِيب الحَدِيث، لأبي عبيد الْقَاسِم بن سَلام الْهَرَوِيّ، طبع بإعانة وزارة المعارف للحكومة الْعَالِيَة الْهِنْدِيَّة، ط الأولى بمطبعة مجْلِس دَائِرَة المعارف العثمانية بحيدر آباد الدكن، الْهِنْد، ١٣٨٤هـ/١٩٦٤م.
٧٠-غريب القرآن، لابن قتيبة الدينوري، تح: أحمد صقر، دار الكتب العلمية، ١٣٩٨هـ/١٩٧٨م.
٧١-الغريبين في القرآن والحديث، لأبي عبيد الهروي، تح: أحمد فريد المزيدي، مكتبة نزار مصطفى الباز، المملكة العربية السعودية، ط الأولى ١٤١٩هـ/١٩٩٩م.
٧٢-الفائق في غريب الحديث والأثر، للزمخشري، تح: علي محمد البجاوي، ومحمد أبو الفضل إبراهيم، دار المعرفة، لبنان، ط الثانية، د.ت.
٧٣-القاموس المحيط، لمجد الدين الفيروز آبادي، تح: مكتب تحقيق التراث في مؤسسة الرسالة، بإشراف: محمد نعيم العرقسُوسي، مؤسسة الرسالة للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، لبنان، ط الثامنة ١٤٢٦هـ /٢٠٠٥م.
٧٤-كتاب الأفعال، لابن القطاع، عالم الكتب، بيروت، ط الأولى ١٩٨٣م.
٧٥-الكتاب، لسيبويه، تح: عبد السلام محمد هارون، مكتبة الخانجي، القاهرة، ط الثالثة ١٤٠٨هـ/١٩٨٨م.
٧٦-كتاب العين، الخليل بن أحمد الفراهيدي، دار ومكتبة الهلال، د.مهدي المخزومي ود.إبراهيم السامرائي، د.ت.
٧٧-الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل، للزمخشري، دار الكتاب العربي، بيروت، ط الثالثة ١٤٠٧هـ.

٧٨-الكشف والبيان عن تفسير القرآن، لأحمد بن محمد الثعلبي، تح: أبي محمد بن عاشور، دار إحياء التراث العربي، بيروت، لبنان، ط الأولى ١٤٢٢هـ/٢٠٠٢م.
٧٩-الكليات، للكفوي، أبو البقاء الحنفي، تح: عدنان درويش، ومحمد المصري، مؤسسة الرسالة، بيروت، د.ت.
٨٠-اللباب في علوم الكتاب، لابن عادل الحنبلي، تح: الشيخ عادل أحمد عبدالموجود، والشيخ علي محمد معوض، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط الأولى ١٤١٩هـ/١٩٩٨م.
٨١-لسان العرب، لابن منظور، دار صادر، بيروت، ط الثالثة ١٤١٤هـ.
٨٢-لوامع الأنوار البهية وسواطع الأسرار الأثرية لشرح الدرة المضية في عقد الفرقة المرضية، لشمس الدين السفاريني الحنبلي، مؤسسة الخافقين ومكتبتها، دمشق، ط الثانية ١٤٠٢ هـ/١٩٨٢م.
٨٣-مجاز القرآن، لأبي عبيدة معمر بن المثنى، تح: محمد فواد سزگين، مكتبة الخانجي، القاهرة، ط ١٣٨١هـ.
٨٤-مجمع الأمثال، للميداني، دار المعرفة، بيروت، تح: محمد محيى الدين عبد الحميد، د.ت.
٨٥-مجمع بحار الأنوار في غرائب التنزيل ولطائف الأخبار، لجمال الدين الهندي الفَتَّنِي الكجراتي، مطبعة مجلس دائرة المعارف العثمانية، ط الثالثة ١٣٨٧هـ/١٩٦٧م.
٨٦-المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز، لابن عطية الأندلسي، تح: عبدالسلام عبد الشافي محمد، دار الكتب العلمية، بيروت، ط الأولى ١٤٢٢هـ.
٨٧-المحكم والمحيط الأعظم، لابن سيده، تح: عبد الحميد هنداوي، دار الكتب العلمية، بيروت، ط الأولى ١٤٢١هـ /٢٠٠٠م.
٨٨-المُخَبَّل السعديُّ: حياته وما تبقى من شعره، صنعه: حاتم الضامن،
٨٩-مختار الصحاح، لأبي بكر الرازي، تح: يوسف الشيخ محمد، المكتبة العصرية، الدار النموذجية، بيروت، صيدا، ط الخامسة ١٤٢٠هـ/١٩٩٩م.

٩٠-مدارك التنزيل وحقائق التأويل، لأبي البركات النسفي، تح: يوسف علي بديوي، راجعه: محيي الدين ديب مستو، دار الكلم الطيب، بيروت، ط الأولى ١٤١٩هـ/١٩٩٨م .
٩١-مراح لبيد لكشف معنى القرآن المجيد، لمحمد بن عمر الجاوي، تح: محمد أمين الصناوي، دار الكتب العلمية، بيروت، ط الأولى ١٤١٧هـ.
٩٢-المستدرك على الصحيحين، للحاكم النيسابوري، تح: مصطفى عبد القادر عطا، دار الكتب العلمية، بيروت، ط الأولى ١٤١١/١٩٩٠م.
٩٣-مسند الإمام أحمد بن حنبل، تح: شعيب الأرنؤوط وآخرين، مؤسسة الرسالة، ط الأولى ١٤٢١هـ/٢٠٠١م.
٩٤-مشارق الأنوار على صحاح الآثار، للقاضي عياض، المكتبة العتيقة، د ت.
٩٥-المصباح المنير في غريب الشرح الكبير، لأحمد بن محمد الفيومي، المكتبة العلمية، بيروت.
٩٦-مصنف ابن أبي شيبة، تح: كمال يوسف الحوت، مكتبة الرشد، الرياض، ط الأولى ١٤٠٩هـ.
٩٧-المصنف، لعبد الرزاق الصنعاني، تح: حبيب الرحمن الأعظمي، المكتب الإسلامي، بيروت، ط الثانية ١٤٠٣هـ.
٩٨-معالم التنزيل في تفسير القرآن، للبغوي، تح: محمد عبد الله النمر، وعثمان جمعة ضميرية، وسليمان مسلم الحرش، دار طيبة للنشر والتوزيع، ط الرابعة، ١٤١٧هـ/١٩٩٧م.
٩٩-معاني القرآن وإعرابه، للزجاج، تح: عبد الجليل عبده شلبي، عالم الكتب، بيروت، ط الأولى ١٤٠٨هـ/١٩٨٨م.
١٠٠-معانى القرآن للأخفش، تح:د. هدى محمود قراعة، مكتبة الخانجي، القاهرة، ط الأولى ١٤١١هـ/١٩٩٠م.
١٠١-معاني القرآن، للفراء، تح: أحمد يوسف النجاتي، ومحمد علي النجار، وعبدالفتاح إسماعيل الشلبي، دار المصرية للتأليف والترجمة، مصر، ط الأولى د.ت.

١٠٢-معجم ديوان الأدب، للفارابي، تح: د.أحمد مختار عمر، مراجعة: د.إبراهيم أنيس، طبعة مؤسسة دار الشعب للطباعة والنشر، القاهرة، ١٤٢٤هـ/٢٠٠٣م.
١٠٣-١٩٩١م.
١٠٤-مفاتيح الغيب، لفخر الدين الرازي، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ط الثالثة ١٤٢٠هـ .
١٠٥-المفردات في غريب القرآن، للراغب الأصفهاني، تح: محمد سيد كيلاني، دار المعرفة، لبنان، د.ت.
١٠٦-المفضليات، للمفضل الضبي، تح: أحمد محمد شاكر وعبد السلام محمد هارون، دار المعارف، القاهرة، ط السادسة د.ت .
١٠٧-مقاييس اللغة، لأحمد بن فارِس بن زكَرِيّا، تح:عبد السَّلام محمد هَارُون، اتحاد الكتاب العرب، ط ١٤٢٣هـ/٢٠٠٢م.
١٠٨-المنهاج شرح صحيح مسلم بن الحجاج، لأبي زكريا النووي، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ط الثانية ١٣٩٢هـ.
١٠٩-الموطأ، لمالك بن أنس الأصبحي المدني، تح: محمد مصطفى الأعظمي، مؤسسة زايد بن سلطان آل نهيان للأعمال الخيرية والإنسانية، أبو ظبي، الإمارات، ط الأولى ١٤٢٥هـ/٢٠٠٤م.
١١٠-نظم الدرر في تناسب الآيات والسور، للبقاعي، دار الكتاب الإسلامي، القاهرة، د.ت.
١١١-نهاية الأرب في فنون الأدب، لشهاب الدين النويري، دار الكتب والوثائق القومية، القاهرة، ط الأولى ١٤٢٣هـ.
١١٢-النهاية في غريب الحديث والأثر، لابن الأثير، تح: طاهر أحمد الزاوي، ومحمود محمد الطناحي، المكتبة العلمية، بيروت، ١٣٩٩هـ/١٩٧٩م.
١١٣-الوسيط في تفسير القرآن المجيد، لأبي الحسن الواحدي، تح: عادل أحمد عبد الموجود، وآخرين، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط الأولى ١٤١٥هـ/١٩٩٤م.